بين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر
لطائف وهدايات، دراسة قرآنية

إعداد

الدكتور/ ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن

في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

من ٨٩٥ إلى ١٠٠٠

بين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر لطائف وهدايات، دراسة قرآنية

ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

البريد الإلكتروني: rabie.Youssef@azhar.edu.eg

ملخص البحث

أقام الله تعالى هذا الكون على سننه الإلهية العامة الثابتة المطردة، التي قدَّرها سبحانه في سابق علمه، وجعل ذلك التقدير سرًّا من أسراره، لم يُطْلِع عليه ملَكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلا، وأودع في آثاره اللطائف والأسرار ما لا يمكن الإحاطة به.

وقد صارت تلك السنن الكونية بعمومها وثباتها واطرادها مقاييس تعوَّد عليها البشر وألِفُوها، فقدَّروا عليها أمورهم، وقاسوا بها أحداثهم، حتى صارت معلومة لديهم بالضرورة، يعرفها العامة والخاصة، من غير افتقار إلى نظر واستدلال؛ ككون النار محرقة، والبحر مغرقا.

ومع أن الله تعالى جعل تلك السنن الكونية عامة ثابتة مطردة إلا أنه عز وجل يخرقها متى شاء لمن أراد، ويوقع المقدور على غير ما تعارف عليه البشر وأَلِفُوه من سننه عز وجل في خلقه؛ لحِكَمٍ بالغة وأسرار عالية.

ولأن قَدَر الله تعالى غيب، لا يَطَّلع عليه أحد من الخلق، فإن البشر –مؤمنهم وكافرهم– يقيسون الأمور بما تعارفوا عليه من سنن الله في كونه، وصار معلوما لهم بالضرورة، فتأتي أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم تبعا لذلك، وهي مقاييس وتقديرات لا تخرج عن حيز المحسوس لهم والمعلوم لديهم؛ ضرورة أن علمهم قاصر وإدراكهم محدود.

وبين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر تتجلى الحِكَم والأسرار، واللطائف والهدايات، نرى ذلك ماثلا في مشاهد قرآنية كثيرة من كتاب الله تعالى، والتي كانت ملهمة وموجهة لفكرة هذا البحث

الكلمات المفتاحية: (بين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر، لطائف وهدايات، دراسة قرآنية).

Between The Scales Of Humans And The Precedent Of Sects And Gifts, Quranic Study

Rabie Yosof Shehata ALghmy.
E-mail: rabie.Youssef@azhar.edu.eg
Assistant Professor of Interpretation and Quranic Sciences at the Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls in Alexandria, At Al-Azhar University

Research Summary

God Almighty established this universe on his steadfast, divine, general, sanctified years, which the Almighty estimated in his previous knowledge, and made that destiny a secret of his secrets in his creation, he was not acquainted with a close angel nor a messenger prophet, and he deposited in him judgment, minutes and secrets that cannot be taken into account; rather, From it, it is only after a walking party that the minds are amazed, and the minds are confused.

The universal Sunnahs have become common, stable, and steadfast in their standards, accustomed to human beings and their accusations, so they assessed their affairs over them and measured their events in them. The steadfastness and consistency of these universal laws and laws.

However, these cosmic Sunnahs may be left behind by the will of God, glory be to Him, and destiny will be achieved and it will be different from what humans have known or have compiled from His Glorious and Glorious Sunnah in his creation. Great is the power of God Almighty, the creator of his making, the breadth of his knowledge, and the greatness of his benevolence and virtue, and beautiful of his generosity.

Between the precedent of fate and the standards of humankind, wisdom and secrets, kindness and gifts are evident, and in the Book of God Almighty there is an abundance of these periods, in many Quranic evidence; hence the idea came

This research comes: (Between the standards of humans and the precedence of destiny, sects and gifts, Quranic study). To reveal aspects of the greatness of the Noble Qur'an, in Badi's kindness and gifts, and his great lessons and lessons and sermons, in this aspect of the Qur'anic stories.

Keywords: Human Metrics - Precedent - Kinds and Gifts - Quranic Study

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فقد أقام الله تعالى هذا الكون على سننه الإلهية العامة الثابتة المطردة، التي قدَّرها سبحانه في سابق علمه، وجعل ذلك التقدير سرًّا من أسراره في خلقه، لم يُطْلِع عليه ملَكًا مقربًا ولا نبيًا مرسَلا، وأودع في آثاره من الحِكم والدقائق والأسرار ما لا يمكن الإحاطة به.

وقد صارت تلك السنن الكونية بعمومها وثباتها واطرادها مقاييس تعوَّد عليها البشر وأَلِفُوها، فقدَّروا عليها أمورهم، وقاسوا بها أحداثهم، حتى صارت معلومة لديهم بالضرورة، يعرفها العامة والخاصة، من غير افتقار إلى نظر واستدلال؛ ككون النار محرقة، والبحر مغرقا.

ومع أن الله تعالى جعل تلك السنن الكونية عامة ثابتة مطردة إلا أنه عز وجل يخرقها متى شاء، ولمن أراد، ويوقع المقدور على غير ما تعارف عليه البشر وأَلِفُوه من سننه عز وجل في خلقه؛ لحِكَمٍ بالغة وأسرار عالية، حتى إذا انجلت الأمور وتحقق المقدور، وكشف الله تعالى طرفا يسيرا من تلك الحكم والأسرار، تاهت العقول وحارت الألباب في عظيم قدرة الله تعالى، وبديع صنعه، وسعة علمه، وجزيل إحسانه وفضله.

ولأن قَدَر الله تعالى غيب، لا يَطَّلع عليه أحد من الخلق، فإن البشر – مؤمنهم وكافرهم– يقيسون الأمور بما تعارفوا عليه من سنن الله في كونه، وصار معلوما لهم بالضرورة، فتأتي أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم تبعا لذلك، وهي مقاييس وتقديرات لا تخرج عن حيز المحسوس لهم والمعلوم لديهم؛ ضرورة أن علمهم قاصر وإدراكهم محدود.

وبين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر تتجلى الحِكَم والأسرار، واللطائف والهدايات، نرى ذلك ماثلا في مشاهد قرآنية كثيرة من كتاب الله تعالى، والتي كانت ملهمة وموجهة لفكرة هذا البحث: (بين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر، لطائف وهدايات، دراسة قرآنية).

وهي رحلة قرآنية تدبرية، أردت من خلالها الكشف عن بعض وجوه اللطائف والهدايات في هذا الجانب، والتي تبرز عظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته، وسعة علمه، فهو وحده سبحانه القادر على خرق ما جعله عادة ثابتة مطردة، لحِكَمٍ وأسرار يبديها ولا يبتديها.

وأنوه إلى أنني لم أقصد في هذا البحث استقراء كل المواضع الواردة في القرآن الكريم، فذلك أمر كبير لا يسعه بحث موجز كهذا، وما ذكرته من الشواهد إنما هي نماذج لفتح الطريق للتأمل والتدبر في هذا الجانب العظيم، وإن كان في العمر بقية أكملت دراسة ما تيسر لي من المواضع الأخرى، إن شاء الله تعالى.

الدراسات السابقة:

لم أجد -بعد بحث مستفيض- أي دراسة علمية تناولت موضوع البحث الحالي.

أسباب اختيار الموضوع:

كان من أهم أسباب اختياري هذا الموضوع: توفيق الله تعالى ومشيئته العلية، ومحبة خدمة كتاب الله تعالى، والرغبة في إثراء المكتبة القرآنية؛ إذ لم أجد بعد البحث والتدقيق من تناول هذا الموضوع، ولا أبان عن جوانب الهداية فيه.

خطة البحث:

قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومنهج البحث فيه.

التمهيد: وفيه تعريف بمصطلحات عنوان البحث.

المبحث الأول: في قصة إبراهيم عليه السلام (نار لا تحرق وتكون بردا وسلاما!!).

المبحث الثاني: في قصة يونس عليه السلام (بحر لا يغرق، وحوت لا يقتل!!).

المبحث الثالث: إنجاب إسحاق ويحيى عليهما السلام (إنجاب بعد اليأس!!).

وفيه مطلبين:

المطلب الأول: إنجاب إسحاق عليه السلام (إنجاب بعد اليأس!!).

المطلب الثاني: إنجاب يحيى عليه السلام (إنجاب بعد اليأس!!).

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

ثم ثبت المصادر والمراجع.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث منهجين هما: الاستقرائي، والتحليلي، حيث جمعت الآيات الكريمة في كل نموذج من نماذج البحث، وقمت بدراستها دراسة تحليلية موجزة، تظهر وجه الاستدلال بها في موطنها الذي ذكرت فيه، وتبرز وجوه الهدايات واللطائف القرآنية فيها.

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يعفو عن تقصيري وزللي، فإني بشر أصيب وأخطئ، فما

كان من صواب فمن فضل الله تعالى علي وكرمه، وما كان من خطأ فمن نفسي، ويعلم ربي أني ما تعمدت التقصير، وحسن ظني في الله تعالى أن المجتهد مأجور على الحالين، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨ ﴾[هود: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دكتور/ ربيع يوسف شحاته الجهمي
الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن
في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

تمهيد
في التعريف ببعض مصطلحات عنوان البحث

أولا: المراد بمقاييس البشر:

المقاييس في اللغة: جمع مقياس، والمقياس هو المقدار، والقياس: تقدير الشيءِ بالشيء، يقال: قاس الشيءَ بغيره وعلى غيره، قَيْسًا وقياسًا، واقتاسه وقَيَّسه: قَدَّره على مثاله(١).

والمراد بمقاييس البشر: تقديراتهم المبنية على القواعد والحقائق العامة، والعادات المطردة، القائمة على السنن الكونية، التي أقامها الله تعالى في هذا الكون، وتعارف البشر عليها حتى صارت معلومة لديهم بالضرورة، يعرفها العامة والخاصة، من غير افتقار إلى نظر واستدلال، ولا يسع عاقل إنكارها؛ ككون النار محرقة، والبحر مغرقا.

ثانيا: المراد بسَبْق القَدَر:

القَدَرُ –بالتحريك– في اللغة: القَضاءُ، والحُكْمُ، ومَبْلَغُ الشيءِ، والجمع: أقْدارٌ(٢)، وهو مصدر، تقول: قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِره – بالكسر والفتح– قَدْرًا وقَدَرًا: إذا أحطت بمقداره(٣).

وهو في الاصطلاح: "ما سبق به علم الله تعالى، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل

---

(١) مقاييس اللغة: ٥/ ٤٠، ولسان العرب: ٦/ ١٨٦، ومختار الصحاح: ص٢٦٢، مادة (قوس).

(٢) القاموس المحيط: ص٤٦٠، مادة (قدر).

(٣) فتح الباري لابن حجر: ١/ ١١٨.

أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدَّرها سبحانه"[١].

والمراد أن الله تعالى سبق علمه عز وجل بمقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل مُحْدَثٍ صادر عن علمه وقدرته وإرادته عز وجل. وهذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطعية، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين[٢].

والقدر سر الله تعالى في خلقه، لم يُطْلِع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا[٣].

وأهل السنة والجماعة: على أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، وأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وعلى وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، قليله وكثيره، وعلى أنه لا يكون شيء إلا بإرادته سبحانه، ولا يجري خير وشر إلا بمشيئته عز وجل، خلق من شاء للسعادة واستعمله بها فضلاً، وخلق من أراد للشقاء واستعمله بها عدلاً، فهو سر استأثر الله تعالى به، وعلم حجبه عن خلقه، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال عز وجل ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]"[٤].

ثالثا: المراد باللطائف والهدايات:

أما اللطائف:

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني: ١/ ٣٤٨.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ١/ ١١٨.

(٣) العقيدة الطحاوية بشرح لابن أبي العز الحنفي: ص: ٢٤٩.

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي: ص١٥١، ١٥٢.

فهي جمع لطيفة، مأخوذة من لَطُف الشيء -بالضم- يلطُف لَطافةً: أي: صغُر ودقّ، فهو لطيف[١]، واللَّطيف من الكلام: ما غَمُض معناه وخفي[٢]. فالمراد باللطائف: دقائق المعاني التي يحويها النص القرآني الكريم، ولا تظهر إلا بعد تدبر عميق.

وأما الهدايات:

فهي جمع هداية، مأخوذة من هدى يَهْدي هدايةً، يقال: هَداه للطَّريقِ وإِلى الطريقِ: هِدايةً: إِذا دَلَّه عَليه، وأَرشَده إليه[٣]. والهداية من الهُدى، والهُدى اسم من أسماء القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤].

فالهدايات القرآنية هي: وجوه المعاني القرآنية التي تتضمن دروسًا وعِبَرًا وعظاتٍ، تفتح عيون القلوب، وتهدي النفوس، وتوقظ الأرواح، وترشدها إلى المعالي، وتحضها على المكارم.

****

---

(١) الصحاح للجوهري: ٤/ ١٤٢٦، ولسان العرب: ٩/ ٣١٦، مادة (لطف).

(٢) بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي: ٤/ ٤٣٠.

(٣) لسان العرب: ١٥/ ٣٥٤، ٣٥٥، مادة (هدي).

المبحث الأول
في قصة إبراهيم عليه السلام
(نار لا تحرق، و تكون بردا وسلاما !!)

توطئة:

خلق الله تعالى النار وأودع فيها خاصية الإحراق، وعلى هذا قامت السنن الكونية، وجرت مقاييس البشر، فلا يمكن في عادات الناس أن تكون النار غير محرقة، هذا مما لا يُتصور بحسب علمهم وتقديرهم، لكنَّ قَدَرَ الله تعالى له شأن آخر، فقد يسبق في قدره تعالى أن تكون غير محرقة، وغير مؤذية مطلقا، وتكون فوق ذلك بردا وسلاما؛ خرقا لعادات البشر ونواميس الكون.

نرى ذلك في كتاب الله تعالى في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، حين أراد قومه قتله حرقا بالنار.

فإنه لما أرسل الله تعالى نبيه إبراهيم -عليه السلام- إلى قومه وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام، ناظرهم في عبادة الأصنام- كما ناظرهم في عبادة الكواكب-، وبيَّن بطلانها، وأقام الحجة عليهم، على ما قصَّه الله تعالى في كتابه الكريم(١).

ولما نازلهم خليل الله وأفحمهم، وكانوا من الجحود والخذلان بمكان صَدُّوا وأعرضوا، واتفقوا على الانتقام منه، ففكَّروا وقدَّروا ودبَّروا أمرهم بليل لَيَقْتُلُنَّه حرقا بالنار، فأعدوا العدة لذلك، ونفَّذوا جريمتهم فيه -عليه السلام- علانية على رؤوس الأشهاد؛ لكنَّ قَدَر الله تعالى كان قد سبق بإنجائه، فلم يصبه ضُرٌّ قط، وبنصره عليهم نصرا مؤزرا.

وفي هذا قال تعالى:

---

(١) في سورة مريم [٤١- ٥٠]، وفي سورة الأنبياء [٥١- ٧٠]، وفي سورة الشعراء [٦٩- ٨٩]، وفي سورة العنكبوت [١٦- ٢٧]، وفي سورة الصافات [٨٣- ٩٨].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٧٠].

وقال الله تعالى:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقال الله تعالى:

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

اللطائف والهدايات:

بتدبر هذه الآيات الكريمة نراها قد تضمنت فيضا من اللطائف والهدايات، والحديث ينتظم فيما الآتي:

أولا: كيدٌ وتدبيرٌ وتقديرٌ:

لقد صورت هذه الآيات الكريمة في إيجاز معجز ما كان من كيدهم وتدبيرهم وتقديرهم للتخلص من الخليل –عليه السلام–؛ ومبالغتهم في ذلك، حتى جمعوا مع الإعداد المادي الإعداد النفسي.

* أما الإعداد النفسي:

فقد صورته الآيات الكريمة تصويرا بديعا، نقل إلينا حالة القوم من الإصرار والعناد والجحود كأننا نراها رأي العين؛ حيث صورت ما كان من تهيئة أكابر القوم أنفسهم والقوم على الإصرار على قتْل الخليل عليه السلام:

١– أما تهيئتهم أنفسهم: فقد صوَّرها قول الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

حيث صور مدى إصرارهم المطلق على المعاندة وإغلاق باب الحوار مع الخليل، حتى لا يبقى للإيمان منفذ إلى قلوبهم؛ وذلك بأتم عبارة وأبلغ أسلوب، وهو أسلوب القصر، في أعلى درجاته وأقواها، وهو القصر بـ (ما وإلا)؛ ليدل دلالة قوية على ما هيأ أكابر القوم أنفسهم عليه؛ إذ المراد: "أنه لم يكن لهم جواب البتة في مشهد أو في وقت إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه، أو لم يكن آخر جوابهم البتة بعد ما نصحهم الخليل وأقام عليهم الحجة إلا الإصرار على قتله أو تحريقه"(١).

(١) ملخص من تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): ٨/ ٢١٨.

وهذا يدل على أن القوم كانوا قد بلغوا في المعاندة والاستكبار والإصرار مبلغا خطيرا؛ إذ أغلقوا عقولهم، وصَمُّوا آذانهم، ومنعوا أنفسهم من الحوار، وعمدوا إلى الانتقام.

ونلمح في التعبير القرآني هنا بالظاهر (قومه) دون المضمر توبيخا قويا لهم؛ إذ كيف يكون منهم ذلك الجحود والإصرار على الانتقام منه، وهو يريد لهم الخير، بل كل الخير، وهم في عرف العقلاء قومُه وأهلُه وبنوا جلدته الذين يعرفون صدقه وأمانته!!!.

أضف إلى ذلك أن قولهم: ﴿ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾، لم يكن ترددا في طريقة إهلاكه، أو تخييرا بين أمرين أحدهما يسير والآخر شديد - فكلاهما مُرٌّ-، ليشي ذلك برحمة ربما وقعت في قلوب بعضهم؛ وإنما كان لقصد الإمعان في القضاء عليه بطريقة مؤلمة شديدة عنيفة، فلم يكن في حسابهم أصلا نفيه أو حبسه مثلا.

- ومما يدل أيضا على عناد القوم وأنهم كانوا مهيئين أنفسهم على الجحود رغم ظهور الحق إصرارهم على التعصب والتقليد الأعمى لآبائهم، وإغلاق باب الحوار والمناقشة مطلقا، فحين ناقشهم -عليه السلام- مُنكِرا عبادتهم للأصنام قائلا: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥٢]، لم يجيبوا، وتمسكوا بتقليد آبائهم قائلين: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٣].

وحين حاججهم وألجأهم إلى منطق العقل قائلا: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣]، لم يجيبوا أيضا، وتشبثوا بالتعصب المقيت والتقليد الأعمى، وردوا، قائلين: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: ٧٤].

وهي ردودُ من ركبه العناد، ولم يُرِد الجواب، ردود من عميت بصائرهم، وقست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

٢- ولم يكتف أكابر القوم بما أعدوا أنفسهم عليه من العناد والإصرار على هذا العمل المجرم- حتى جمعوا إليه تهيئة القوم نفسيا على عدم التعاطف معه عليه السلام:

- نرى ذلك في قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ ... الآيات ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٢]، والمعنى الإجمالي: أنهم تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة والبرهان، فقرروا أن يأتوا به ظاهرا بمرأى من القوم جميعا، ليقرروه أمامهم بما فعل، حتى يشهدوا عقوبته، أو حتى يكون ذلك حجة عليه أمامهم بما فعل.

وقد أرادوا من ذلك التشهير به -عليه السلام-، وتهيئة القوم نفسيا على عدم التعاطف معه، حين أظهروه أمامهم في صورة المذنب الذي اقترف في حق الجميع ما لا يغتفر؛ لئلا تقع في قلب أحدهم رأفة أو رحمة تجاهه، مع ما في ذلك من إرهابٍ لكل من تسول له نفسه أن يميل إليه أو يفكر في اتباعه.

- ونراه أيضا في قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأنبياء: ٦٨]؛ إذ فيه من تأليب القوم وتحريضهم عليه ما فيه.

ففي قولهم: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ من التضعيف ما يدل على قصدهم المبالغة في إحراقه عليه السلام، حثًّا للقوم وتحريضا لهم على ذلك، فما أرادوه ليس حرقا فحسب، وإنما هو تحريق فيه تكثير للحدث وتضعيف له وزيادة، إمعانا في التعذيب قبل القتل!!!.

وفي قولهم: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ دلالة على أنهم استحثوا القوم نفسيا وأثاروا فيهم حَمِيَّةَ الأخذ بالثأر في: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ﴾، ونَعْرة العصبية في: ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ حتى لا تأخذهم به رأفة أو يتخلف منهم أحد.

ثم جاء التحريض صريحا في قولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾، أي: إن كنتم ناصري آلهتكم نصرا قويا مؤزرا فافعلوا ذلك ولا تتأخروا في تنفيذه.

وفي هذا كله أدلة واضحة على أن أكابر قومه -عليه السلام- كانوا قد هيئوا أنفسهم والقوم، واستقر حَرْدُهم واتفقت نياتهم وأصروا على هذا الجرم العظيم، وهو تحريقه بالنار.

"وهكذا المبطل إذا قُرِعت شبهته بالحجة وافتضح، لم يكن أحدٌ أبغض إليه من المُحِقِّ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته"(١).

(ب) وأما الإعداد المادي، والتنفيذ:

فقد صوره قول الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: ٩٧].

لما هيأ أكابر القوم أنفسهم على المعاندة والإصرار، فصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم ولم يقبلوا من الخليل نصحا، وهيئوا العامة على عدم التعاطف معه، شرعوا بعد ذلك في عملية الإعداد المادي تمهيدا للقضاء عليه نهائيا.

حيث تشاوروا في كيفية القضاء عليه -عليه السلام-، فكان رأيهم أولا متأرجحا بين قتله أو تحريقه، وكلاهما مُرٌّ؛ إمعانا في اختيار طريقة تجمع بين

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٢٥.

القتل والكيد، ثم استقر مكرهم على اختيار التحريق نكاية فيه، وإمعانا في تعذيبه والتنكيل به قبل القضاء عليه، ثم حددوا طريقة تحريقه، وهي: أن يبنوا له بنيانا يلقوه من فوقه في ذلك الجحيم الذي أضرموه، أو بأن يبنوا له بنيانا فيضرموه نارا بعضها فوق بعض ويلقوه في جحيمه، أي: في جحيم ذلك البنيان.

و(الجحيم): النار الشديدة الوقود[١]. قال الزجاج: "كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم"[٢]. وقد "اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات"[٣]، أي: في زمانهم.

وهذا منطق الجبابرة الطغاة، الذي لا يعرفون منطقا سواه، عندما تفضحهم الحجة ويخرسهم الدليل، فلا يلجأون إلا إلى التعذيب والتنكيل.

* وإلى هنا تم الإعداد نفسيا وماديا، ولم يبق منهم إلا التنفيذ، وخليل الرحمن مطمئن القلب ثابت اليقين، لم يخف ولم يهتز، إنه الاستسلام لقَدَرِ الله في ثقة واطمئنان بأنه تعالى ينصر رسله والذين آمنوا.

ونفذ المجرمون جريمتهم، وألقوا خليل الرحمن في النار، ظانين أنهم بذلك قد أسكتوا صوت الحق، وأماتوا داعي الهدى، وتخلصوا منه إلى الأبد، واستراحوا من تعنيفه إياهم، وتحقيره آلهتهم المزعومة!!!

وهو عليه السلام يومئذ -كما دل القرآن الكريم- وحيدٌ لا قوة له من أهل أو أتباع!! بين قوم كافرين، لا رحمة في قلوبهم، ولا هوادة عندهم، أعماهم تقليد الآباء والأجداد، وأصمتهم عصبية مقيتة، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٥٢.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٤/ ٣١٠.

(٣) الكشاف: ٣/ ١٢٦، والتفسير الكبير: ٢٢/ ١٥٨.

وهكذا صار إبراهيم -عليه السلام- في حكم قومه وتقدير كل البشر مقتولا وهالكا لا محالة!!! ومن ذا الذي ينجو من ذلك الجحيم المستعر؟!! والجميع مصرون على إهلاكه مع سبق العمد والإصرار والترصد؟!!.

وكيف ينجو خليل الرحمن -عليه السلام- في مقاييس البشر بعدما أُلقي في جحيم مضرم نارا؟!! وحتى لو فُرِض وساعده أحد في قلبه نخوة أو في نفسه نجدة ونجا!!! هل يعيش بعد ما أصابه من التحريق؟!! في عرف البشر كلهم لا يمكن أن يحيا بعد ذلك إلا ضعيف الجسم، ذليل النفس، مكسور القلب والجناح.

ثانيا: إنجاءٌ وتكريمٌ، وخيبةٌ وخذلانٌ:

هكذا فكَّر القوم وقدَّروا، ومكروا ودبَّروا ونفَّذوا، ولكن هيهات هيهات لهم، إن قَدَرَ الله تعالى قد سبق بإنجائه -عليه السلام-، وخذلانهم وخيبة آمالهم، وفساد تقديرهم وتدبيرهم. لقد باءوا بالخيبة والخسران؛ إذ لم ينج خليل الرحمن من النار فحسب، وإنما صارت عليه بردا وسلاما؛ تكريما له وتشريفا.

* أما إنجاؤه وتكريمه عليه السلام:

- فقد أجمله الله تعالى في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤﴾ [العنكبوت: ٢٤].

أي: فألقوه في النَّار فأنجاهُ الله تعالى من إذايتها، بأنْ جعلَها عليه بَرداً وسلاماً حسبما بُيِّن في موضع آخر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤﴾ أي: إن في إنجاء الله لإبراهيم لآيات بينات، ودلالات واضحات على عظيم قدرته تعالى، لا يفقهها ولا ينتفع بها إلا المؤمنون.

وقال الله تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، ولم يقل (لآية) لاشتمال هذا الإنجاء على آيات كثيرة جليلة، تدل على عظيم قدرة الله تعالى وبديع قَدَرِه، فمنها: أن الله

تعالى لا يعجزه شيء، ومنها: أن الله تعالى ناصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ومنها: تلك النجاة العظيمة العجيبة من النار، ومنها: عجز أولئك الطغاة بكل ما أوتوا من العتاد عن إيذاء رجل وحيد أراد اللّه تعالى له النجاة، ومنها: أن القلوب الجاحدة لا تؤثر فيها خوارق العادات، ولا بد من وجود الاستعداد للهدى والإيمان.

- وفصَّله عز وجل في موضع آخر في قوله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾[الأنبياء: ٦٩].

وفي هذا تمام التكريم والتشريف له عليه السلام؛ وذلك من ناحيتين:

أولاهما: أن الله تعالى ما أبطل كيدهم فنجَّاه من النار إبعادا له منها، وإنما مكنَّهم من إلقائه فيها ثم أنجاه منها، فكان ذلك آية عجيبة، ومعجزة ظاهرة، وحجة بالغة؛ إذ "لو عصمه الله تعالى منها وأبعده عنها، ولم يمكِّنهم من رميه فيها لكان- في الظاهر- أقرب من النصر، ولكنّ إلقاءه فيها وحفظ الله تعالى له من أن يمسّه منها ألمٌ لهو أتمّ في باب النصرة والمعجزة"[(١)]؛ خاصة إذا تصورنا أن كمال الحجة في هذا الموقف يقتضي أن يكون الخليل - عليه السلام- قد مكث في تلك النار وقتا كافيا ليراه جمهور القوم الذين أرادوا التشفي منه؛ حتى تتأكد المعجزة وتقوى الحجة.

والثانية: أن الله تعالى زاده شرفا وتكريما وتمكينا؛ حيث جعلها عليه بردا وسلاما، والمعنى: "قلنا: يا نار كوني أنت بردا وسلاما على إبراهيم، فبولغ في ذلك كأنها ذاتها برد وسلام"[(٢)].

---

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري: ٢/ ٥٠٩. بتصرف وزيادة.

(٢) يراجع: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٢٨٧، والكشاف: ٣/ ١٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ حتى لا تكون شديدة البرد فيقتله بردها، قال بعض العلماء: جعل الله فيها بردا رفع حرها، وحرا رفع بردها، فصارت سلاما عليه[١]. أخرج ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه قال: "لو لم يقل سبحانه: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لَقَتَلَهُ بَرْدُهَا"[٢]. فكانت آية معجزة لَمْ يُرَ مِثْلُهَا قبلها ولا بعدها.

وقيل: إن انتصاب (سلاما) على أنه مصدر لفعل محذوف، أي: وسلمنا سلاما عليه[٣]، وهذا على أنه تحية من الله تعالى. قلت: وفيه إضافة معنى جديد؛ إذ التقدير: فأنجاه الله تعالى من النار وجعلها عليه بردا لينا لا يضر، مع أن شأنها الإحراق، وزاده سبحانه فضلا بأن حيَّاه تحية من عنده؛ تثبيتا لقلبه، وتطمينا لفؤاده.

ونلمح ههنا سرا بديعا في التعبير بـ "الجحيم" في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾[الصافات: ٩٧]، وبـ "النار" في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[الأنبياء: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[العنكبوت: ٢٤]:

وذلك أنها كانت جحيما في تصورهم وتقديرهم فقط، أما في حكم الله تعالى فلم تَعْدُ أن تكون نارا، بل نارا منزوعة الأثر، وفيها فوق ذلك برد وسلام!!

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٠٤.

(٢) الأثر: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٦/ ٣٣٠، رقم (٣١٨٢٢).

(٣) البحر المحيط: ٧/ ٤٥١، وفتح القدير: ٣/ ٤٩٠. واستبعده أبو حيان في البحر: ٧/ ٤٥١، بحجة أنها لو كانت تحية لكان الرفع أولى بها من النصب. قلت: له توجيه سائغ، وفيه تكثير لمعنى الآية.

* وأما خيبتهم وخذلانهم:

- فقال الله تعالى فيها: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وفي التعبير عن صنيعهم بالخليل -عليه السلام- من التدبير والمكر والتنفيذ بقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ وعن عقابه تعالى لهم بقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ﴾ دلالة على أن ما دبَّروه وكادوه ونفذوه فيه -عليه السلام- لم يَعْدُ إلا أن يكون إرادة وكيدا فحسب، مع أنهم نفَّذوا ما دبَّروه فعلا؛ لكن قَدَرَ الله تعالى كان قد سبق بإنجائه عليه السلام، وخزيهم وإذلالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ﴾ أي: فصيَّرناهم.

والمعنى: وأرادوا به هلاكا فلم يفلحوا، وباء تدبيرهم بالخيبة، وصيرناهم الخاسرين، حيث رددنا مكرهم عليهم، وجعلناه في نحورهم، وجعلنا الفوز والنصر لإبراهيم عليه السلام.

"والأخسر: مبالغة في الخاسر، فهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر، وهو قصر للمبالغة، كأن خسارتهم لا تدانيها خسارة، وكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين، فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم. والمراد بالخسارة: الخيبة، وسميت خيبتهم خسارة على طريقة الاستعارة تشبيها لخيبة قصدهم إحراقه بخيبة التاجر في تجارته، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾، أي: فخابوا خيبة عظيمة، وذلك أن خيبتهم جُمع لهم بها سلامة إبراهيم من أثر عقابهم، وأَنْ صار ما أعدوه للعقاب معجزة وتأييدا له عليه الصلاة والسلام[١].

---

(١) التحرير والتنوير:١٧/ ١٧٠. بتصرف، وزيادة.

- وقال تعالى فيها أيضا: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٨]

والمراد بـ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: الأذلين المقهورين المغلوبين[١]. والمعنى: "أن الله تعالى نصره عليهم في المقامين جميعا، وأذلهم بين يديه: أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر، وقهرهم فمالوا إلى المكر، فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين، فلم يقدروا عليه"[٢].

ولعل السر في وصفهم مرة بـ (الأخسرين)، ومرة بـ (الأسفلين)[٣]:

أن الله تعالى أخبر في سورة "الأنبياء" أن إبراهيم -عليه السلام- كادهم، وأنهم كادوا له؛ أما هو فقد تحقق كيده فيهم؛ لأنه كسّر أصنامهم، وأقام الحجة عليهم، ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فانتصر عليهم، وأما هم فلم يكيدوه، وعادت عليهم مكايدتهم، فخسروا؛ فلذا عُبر بـ (فجعلناهم الأخسرين).

وأخبر سبحانه في سورة "الصافات" أنهم بنوا بناء ورموا من فوقه خليل الرحمن في الجحيم، أو بنوا بناء وجعلوه جحيما وألقوه فيه، وهذا دليل على تجبرهم وتعاليهم، وقصدهم التشهير به وإهانته عليه السلام، وإلا ما فائدة رميه عليه السلام من فوق هذا البناء، أو تشييده لتحريقه، وأمر القتل بالنار لا يحتاج لكل ذلك؟!. فلذا عاقبهم الله تعالى فجعلهم الأسفلين، لأنهم أرادوا التجبر والتعالي على الخليل -عليه السلام-، فجعله الله تعالى عاليا عليهم، ورفع قدره، وأعزه ونصره عليهم نصرا مؤزرا، وجعلهم الأسفلين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٩٧، وإرشاد العقل السليم: ٧/ ١٩٩.

(٢) الكشاف: ٤/ ٥٢.

(٣) مستفاد إجمالا من درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي: ١/ ٩٠٥، ٩٠٦.

فمن حيث أراد قومه الانتصار عليه خابوا وخسروا، وانتصر هو عليهم نصرا مؤزرا، ومن حيث أرادوا تحقيره وإذلاله أعزه الله تعالى ورفع قدره، وأذلهم وحقرهم، فجمع الله تعالى لهم الوصفين (الأسفلين، والأخسرين) زيادة في العقاب والنكال.

وختاما: لقد كان إبراهيم عليه السلام في تقدير وحسبان أولئك القوم – وسائر البشر– مهانا وذليلا وهالكا لا محالة، لكنه كان في علم الله تعالى معززا مكرما منصورا مرفوعا على رؤوس الأشهاد؛ قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

هذا قَدَرُ الله تعالى الذي سبق به علمه، لا ما دبَّره البشر ورتبوه، وظنوا أنهم بتملك أسبابه قادرون على إنفاذه. لقد خيب الله تعالى آمالهم، وأفسد عليهم تقديرهم، وجعله خزيا لهم وعارا عليهم، وأتتهم الهزيمة والخذلان من حيث أرادوا العزة والنصر، وكانت عاقبة تدبيرهم خسرا. ونصر الله تعالى خليله إبراهيم –عليه السلام– بما دبروه له، وأتاه النصر والتمكين من حيث أراد أعداؤه له القتل والهلاك، وكانت عاقبة أمره نصرا وعزا.

إن قَدَرَ الله تعالى عجيب!!، ولله تعالى في قَدَرِهِ شؤون وحِكَمٌ وأسرار؛ فسبحان الملك الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

<u>وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن:</u>

– ثابتًا على الحق، لا تَهُزُّه عواصف الفتن، ولا يبيع دينه؛ مهما بلغ الكيد، ومهما كان الثمن.

– واثقًا من نصر الله تعالى وتأييده وحفظه؛ مهما عَظُم البلاء.

– صابرًا على الابتلاء، غير متضجر أو متعجل.

– راضٍ بقضاء الله تعالى وقدره، موقنًا أن ما خبأه الله تعالى في قدره هو الخير كل الخير.

– مفوضًا أمره إلى الله تعالى، مُسَلِّما قيادَه إليه عز وجل، متوكلا لا متواكلا.

– موقنًا بسَعة فضل الله تعالى، وعظيم جزائه وكرمه.

*****

المبحث الثاني
في قصة يونس عليه السلام
(بحر لا يغرق و حوت لا يقتل!!)

توطئة:

جرت سنة الله تعالى بأن من أُلقِي في عُرْض البحر مجردا من أسباب النجاة ميت لا محالة؛ فضلا عمن أُلقي فيه فالتقمه الحوت!!.

وعلى هذا قامت مقاييس البشر، فإنها حاكمة بهلاكه هلاكا محققا، إن لم يكن غرقا؛ فقتلا!!. لكنَّ قَدَرَ الله تعالى إذا سَبق بإنجائه نزع من البحر خاصية الإغراق، ومن الحوت خاصية القتل والإهلاك؛ وجعل البحر سبيلا للحياة، وبطن الحوت ملاذا آمنا للنجاة. وسبحان من لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو السميع العليم!!.

نرى ذلك مثالا حيا في قصة سيدنا يونس عليه السلام؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩ – ١٤٧].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

ويقول الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨ – ٥٠].

اللطائف والهدايات:

بتدبر هذه الآيات الكريمة نراها قد تضمنت -على إيجازها- كثيرا من اللطائف والهدايات، والحديث عن ذلك ينتظم في الآتي:

أولا: محنة شديدة وابتلاء عظيم:

يدل سياق الآيات الكريمة في قصته -عليه السلام- على أنه وقع في محنة شديدة وابتلاء عظيم؛ فقد ابتلاه الله تعالى بابتلاءين، أحدهما عام بينه وبين سائر الأنبياء عليهم السلام، والثاني خاص به، خرق الله تعالى له فيه عادات البشر ومقاييسهم، حيث أُلقِي في اليم فلم يَغرق، والتقمه الحوت فلم يُقتل:

أما الابتلاء الأول: فهو تكذيب قومه له:

وقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ ﴾ [الصافات: ١٤٠].

- ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا ﴾: وذا النون إذ ذهب مراغما لقومه[١]، وفي التعبير بـ(مغاضبا) دون (غاضا) دليل على أنه -عليه السلام- لم يغضب منهم أول ما كذبوه، وإنما بعد أن جاهدهم كثيرا، فكان منهم الإصرار والإعراض والتكذيب، وكان منه الغضب والأسى؛ فناسب التعبير

---

(١) الصحاح: ١/ ١٩٤، ولسان العرب: ١/ ٦٤٩، وتاج العروس: ٣/ ٤٨٦، مادة (غضب).

"والمراغمة: المغاضبة. يقال: راغم فلان قومَه، إذا نابذَهم وخرجَ عليهم. والتَرَغُمُ: التغضُّبُ". (الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٩٣٤)، مادة: (رغم).

بصيغة تدل على المفاعلة (المغاضبة) ذلك الغضب المتكرر منه بتكرر تكذيبهم.

قال الزمخشري: "بَرِمَ بقومه[١] لطول ما ذكَّرهم فلم يذَّكَّروا، وأقاموا على كفرهم، فراغمهم، وظنّ أنّ ذلك يسوغ؛ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وأنفةً لدينه، وبغضا للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم، فابتلى ببطن الحوت"[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي: فظن أن لن نُضَيِّقَ عليه في ذهابه عن قومه وتركه إياهم لما كذبوه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]؛ أي ضُيِّقَ عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦]؛ أي: فَضَيَّقَ عليه[٣].

- وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠]: فمعناه: إذ اسْتَخْفَى أو توارى أو استتر عن قومه[٤]، وذهب إلى الفلك المشحون، أي: المملوء بالراكبين[١].

---

(١) ملَّهم وضجِرهم، يراجع: لسان العرب: ١٢/ ٤٣، مادة (بَرِم).

(٢) الكشاف: ٣/ ١٣١.

(٣) لسان العرب: ٥/ ٧٧.

قَالَ الأَزهري: فأَما أَن يَكُونَ قَوْلُهُ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُدْرَةِ فَلَا يَجُوزُ، لأَن مَنْ ظَنَّ هَذَا كَفَرَ، وَالظَّنُّ شَكٌّ وَالشَّكُّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ، وَقَدْ عَصَمَ اللَّهُ أَنبياءه عَنْ مِثْلِ مَا ذَهَبَ إِليه هَذَا الْمُتَأَوِّلُ، وَلا يَتَأَوَّلُ مثلَه إلا الجاهلُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَلُغَاتِهَا؛ لسان العرب (٥/ ٧٧)

(٤) قال ابْنُ سِيدَهْ: أَبَقَ يَأْبِق ويأْبُق أَبْقاً وَإِبَاقًا، فَهُوَ آبِقٌ، وَجَمْعُهُ أُبَّاقٌ. وأَبَقَ وتأَبَّقَ: اسْتَخْفَى ثُمَّ ذَهَبَ؛ قَالَ الأَعشى: فَذَاكَ وَلَمْ يَعْجِزْ مِنَ الموتِ رَبُّه *** ولكنْ أَتاه الموتُ لا يتأَبَّقُ

وفيه إشارة إلى شدة غضبه منهم حتى إنه ما يكاد يريد رؤيتهم؛ حيث توارى عنهم وذهب قاليا لهم، هائما على وجهه، ظانًّا باجتهاده أن الله تعالى لن يضيق عليه في ذهابه عنهم وتركه إياهم.

وأما الابتلاء الثاني: فهو التقام الحوت إياه:

ركب سيدنا يونس -عليه السلام- إذًا الفلك المشحون، وهناك وقع ابتلاؤه الأعظم؛ يقول الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: أي: فقارع مع أهل السفينة، والاستهام: الاقتراع[٢]، فكان من المقروعين، أي: من المسهومين في القرعة، أي: فخرجت القرعة عليه، "والمُدْحَض: المغلوب المقروع، وحقيقته: المُزْلَق عن مقام الظَّفَر والغلبة"[٣].

وتأَبَّق: استترَ. وَرَوَى ثَعْلَبٌ أَنَّ ابْنَ الأَعرابي أَنشده:

أَلا قالتْ بَهانِ وَلَمْ تأَبَّقْ: *** كَبِرْتَ ولا يَلِيقُ بِكَ النَّعيمُ

قَالَ أَبو زَيْدٍ: لَمْ تـأَبَّق لَمْ تَبْعُدْ، مأْخوذ مِنَ الإِباق، وَقِيلَ لَمْ تستخفِ، أَي: قَالَتْ عَلانِيَـةً. والتأَبُّق: التَّوَارِي.

يراجع: لسان العرب: ١٠/ ٣، ٤، مادة (أبق).

قلت: وهذا هو المعنى اللائق بأنبياء الله تعالى، لا ما ذكره كثير من المفسرين من أنـه: هرب، رغم صحته لغة، لكن في غير مقام النبوة.

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٤٤٧.

(٢) يقـال: اسْـتَهَمَ الـرَّجُلانِ: تَقَارَعَـا، وأَسْـهَمَ بَيْـنَهُمْ: أَقْـرَعَ، واسْـتَهَمُوا: اقْتَرَعُوا. وتَسـاهَمُوا: تَقَارَعُوا". يراجع: لسان العرب: ١٢/ ٣٠٨. مادة (سهم).

(٣) الكشاف: ٤/ ٦١.

والدَّحْضُ: الزَّلَقُ، والإِدْحاضُ: الإِزْلاقُ، يقال: دَحَضَتْ رِجلـه، تَدْحَضُ دَحْضاً ودُحُوضاً زَلِقَتْ، ودَحَضَها وأَدْحَضَها أَزْلَقَها. والدُّحَّضُ: جَمْعُ داحِضٍ وَهُمُ الَّذِينَ لا ثَبَاتَ لَهُمْ وَلا عَزِيمَـةَ فِي الأُمور. ودَحَضَتْ حُجَّتُه دُحُوضاً: إِذا بَطَلَتْ، وأَدْحَضَها اللَّهِ. يراجع: مقاييس اللغة: ٢/ ٣٣٢، ولسان العرب: ٧/ ١٤٨. مادة (دحض).

وفي التعبير بـ (مِن) إشارة إلى أنه لم يكن وحده من وقعت عليه القرعة، بل كان هناك آخرون.

﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾. أي: فالتهمه الحوت وابتلعه[١]، وهو لائم لنفسه نادم على تركه قومه، أو وهو آت بما يلام عليه، أي: بما يعاتب عليه، و"اللّومُ: العَذْلُ"[٢]. قال الفراء: "المُليم: هو الذي قد اكتسبَ اللَّوْمَ وإن لَمْ يُلم، والمَلوم: هو الذي قد لِيم باللسان"[٣].

قال المفسرون[٤]: وفي أثناء سير السفينة هاج البحر، وتلاطمت أمواجه، فاقترعوا على طرح بعض ركابها في البحر لينجو الجميع من الغرق؛ فجاءت القرعة على سيدنا يونس -عليه السلام-، فألقى بنفسه في البحر، أو فألقوه فيه؛ فالتقمه الحوت!!. قال الطاهر بن عاشور: "وكانت سنَّةُ الاقتراع في أسفار البحر متبعة عند الأقدمين إذا ثقلت السفينة بوفرة الراكبين أو كثرة المتاع"[٥].

قال المحققون: "ولم يكن التقام الحوت له -عليه السلام- عقوبة من الله تعالى له, وإنما كان تمحيصا, وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان"[٦].

---

(١) الصحاح: ٥/ ٢٠٣١، ولسان العرب: ١٢/ ٥٤٦. مادة (لقم).

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٥٥٧، مادة (لوم)

(٣) معاني القرآن للفراء: ٢/ ٣٩٣.

(٤) تراجع جميع كتب التفسير في قصته عليه السلام.

(٥) التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٧٣.

(٦) النكت والعيون للماوردي: ٣/ ٤٦٧، ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٤.

ويا لها من محنة شديدة، ويا له من ابتلاء عظيم!!!؛ لأنه في كل مقاييس البشر لا يمكن لمن ألقي في عُرْض البحر مجردا من أسباب النجاة أن ينجو؛ خاصة إذا ألقي فالتقمه الحوت!!.

وبهذا قُدِّر في حكم البشر جميعا أنه -عليه السلام- من الهالكين!!؛ إذ لا يمكن في مقاييسهم أن ينجو أحد بعد ما التقمه حوت وابتلعه في بطنه، في بحر لجيٍّ تتلاطم أمواجه، وتتكاثف ظلماته.

وهكذا يسوقه قَدَرُ الله تعالى إلى ما كُتِب عليه من الابتلاء. إنه ابتلاء عظيم لا يقوى عليه أحد، إلا من هيأ الله تعالى له أسباب النجاة، وتلقفته يد العناية الإلهية.

يشير إلى تلك العناية الإلهية تعريف لفظ الحوت، فإنه يدل على أنه كان حوتا مهيئًا معدا لذلك، منتظرا إلقاءه -عليه السلام- ليقوم بهذه المهمة الخطيرة. كما أن في التعبير بالالتقام ما يشعر بتلك العناية الإلهية أيضا؛ إذ يصور حالة الحوت وهو متأهب لالتقاطه، فالتقمه بمجرد إلقائه قبل أن يعاني في البحر ويلات الغرق ويصارع ألم الموت، وقوَّى ذلك كله العطف بالفاء.

<u>ثانيا: اضطرار واستغاثة:</u>

يستقر سيدنا يونس -عليه السلام- في بطن الحوت، ويقدِّر الله تعالى أن لا يؤذيه، وأن يبقى حيًّا في بطنه.

وهناك يجأر -عليه السلام- ويستغيث استغاثة المضطر، ويلهج لسانه بالذكر والتسبيح. وهو في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها!!، إنها ظلمات الليل، وظلمات جوف البحر، وظلمات بطن الحوت.

- يقول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

أي: فاستغاث بالله تعالى استغاثة المضطر، وهو في تلك الظلمات، التي أحاطت به من كل جانب، و"الفاء في (فنادى) هي الفصيحة، أي: فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت إياه"[(١)].

ويصور القرآن الكريم حاله في تلك اللحظات العصيبة؛ في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨]، أي: إذ نادى وهو مملوء غَمًّا وكرباً[(٢)]؛ مما حل به من ذلك الابتلاء العظيم. "وجيء بهذه الحال جملة اسمية لتدل على الثبات، أي: إذ نادى وهو في حبس لا يُرجى لمثله سراح منه"[(٣)].

استغاث -عليه السلام- استغاثة المضطر الواثق بربه سبحانه مُلَوَّحا بطلبه أن يجيبه وينجيه مما هو فيه من الغم؛ فنادى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾: فوحَّد الله تعالى وأثنى عليه. ونزَّهه عز وجل عن كل نقص؛ حيث قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: "أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شيء، فلا يقدر على الإنجاء من مثل ما أنا فيه غيرك، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: إني كنت من الظالمين لنفسي في ذهابي عن قومي قبل أن تأذن لي"[(٤)].

ولما كان المقام مقام استغاثة واضطرار، واستحياء شديد من الله تعالى، لم يفصح -عليه السلام- بطلب النجاة صراحة؛ وإنما اكتفى باستغاثته الموجزة

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/ ٨٢.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٢١١.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٠٥. بتصرف يسير.

(٤) ملخص من التفسير الكبير للرازي: ٢٢/ ١٨١، ونظم الدرر للبقاعي: ١٢/ ٤٦٦، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٨٢، ٨٣.

التي جمع فيها بين توحيد الله تعالى، والثناء عليه سبحانه، وتنزيهه عز وجل عن كل نقص، واعترافه بتقصيره، واعتذاره عن ظلمه لنفسه.

فتضمنت استغاثته بأسلوب التلويح دعاءه ورجاءه أن يكشف الله تعالى عنه الغم الذي حلَّ به، وهو من أَلطف أَساليب الأَدب في الدعاء، حيث لم يصرح بطلبه، وإنما عَرَّض به في استحياء شديد، ومن طرف خفيّ، وكأنه يقول: (علمك بحالي يغني عن سؤالي).

أخرج أبو داود في سننه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ)[1].

ثالثا: استجابة ونجاة واجتباء:

وإذا كانت مقاييس البشر حاكمة بهلاكه -عليه السلام- لا محالة، فإن قدر الله تعالى قد سبق باستجابة ندائه، ونجاته، واجتبائه، ولله تعالى في قدره شؤون وحِكَم وأسرار.

لقد أنعم الله تعالى عليه حين استغاث به عز وجل في تلك الظلمات بثلاث نعم عظام: الأولى استجابة ندائه، والثانية: نجاته من الغم الذي كان فيه، والثالثة: اجتباء الله تعالى له، وجعله من الصالحين، وإرساله إلى قومه مرة أخرى.

---

(١) الحديث: أخرجه الترمذي في سننه: في كتاب: أبواب الدعوات، باب: ما جاء في فضل التسبيح والتكبير: ٥/ ٥٢٩، ح(٣٥٠٥). والحاكم في المستدرك: في كتاب: الدعاء: ١/ ٦٨٤، ح(١٨٦٢)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٩، ٥٠]

- أما استجابة ندائه: فكانت عاجلة غير آجلة؛ يقول تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾، يدل على ذلك التعبير بلفظ الاستجابة، التي تعني المبالغة في الإجابة، كما يدل عليه العطف بالفاء ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ ﴾، والتي تدل على سرعة الاستجابة له، وإغاثته له من ذلك الكرب العظيم. كما أن في إسناد الاستجابة إلى نون العظمة ما يدل على عظم تلك الاستجابة.

والمعنى: فاستجبنا له دعاءه الذي تضمنه نداؤه: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، بطريق التلويح؛ استحياء وأدبا مع الله تعالى.

- وأما نجاته من الغم: فقد "نجَّاه الله تعالى من الغم الذي أصابه بالتقام الحوت له، ومن الغم الذي كان ألجأه إلى مغاضبة قومه"(١). والغم: "واحد الغُمُومِ. والغَمُّ والغُمَّةُ: الكَرْبُ"(٢).

ولما كانت نجاته -عليه السلام- أمرا غريبا عجيبا، غير متصور في عقول البشر؛ أشار الله عز وجل إلى كمال قدرته على أمثاله؛ إكراما لعباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾، أي: كما نجينا يونس -عليه السلام- من غمه وكربه ننجي سائر المؤمنين ونخلصهم من غمهم وكربهم بما سبق من عملهم.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ١٢/ ٤٦٧.

(٢) لسان العرب: ١٢/ ٤٤١. مادة (غمم)، والمفردات: ص٦١٣، ٦١٤.

– والآية الكريمة صريحة في أن استغاثته –عليه السلام– كانت سببا في استجابة دعائه ونجاته من هذا الغم، ولكنها لم تكن السبب الأوحد، أو وليدة اللحظة، وإنما كانت مبنية على طاعة سابقة وعبادة دائمة، كانت السبب الرئيس في نجاته؛ يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

والمعنى: فلولا أنه كان من العابدين[١] المواظبين على الطاعة. وعُبِّر عن ذلك بالفعل الماضي (كان) إشارة إلى حكاية حاله فيما سبق، وأن تسبيحه في هذا المكان إنما كان امتدادا لتسبيحه في حياته السابقة.

وعُبِّر باسم الفاعل إشارة إلى ملازمته ذلك التسبيح وثباته عليه، وأن هذا دأبه وديدنه في كل الأحوال، والتعبير بلفظ التسبيح مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبر بلفظ الجزء (التسبيح)، وأراد الكل (العبادة).

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ أي: للبث في بطنه حيا إلى يوم البعث؛ هذا هو الظاهر، وقيل: لكان بطن الحوت له قبرا إلى يوم القيامة، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجَّاه. وهذا

---

(١) حيث روي في معنى ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] أقوالا: منها: : فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح والتقديس مدة عمره، أو الذاكرين الله تعالى في بطن الحوت وهو قوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقيل: فلولا أنه كان من المصلين. قلت: وكلها أقوال تعود إلى معنى المواظبة على الطاعة. يراجع: جامع البيان: ٢١/ ١٠٨- ١١١، والنكت والعيون: ٥/ ٦٧.

حفظٌ من الله عز وجل لعبده يونس -عليه السلام-، رعى له حق تعبُّده، وحفظ له ما سلف من الطاعة"[١].

- وقد صور القرآن الكريم نعمة الله تعالى عليه في نجاته، في إيجاز شديد؛ في قوله سبحانه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾ [القلم: ٤٩٠].

أما قوله سبحانه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦]، فمعناه: فحملنا الحوت على لفظه في العراء؛ وهو المكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبات[٢]، قيل يعني بذلك ساحل البحر. وهو -عليه السلام- سقيم؛ أي: عليل في جسمه وفي نفسه؛ مما ناله من هذا الغم والكرب[٣]. وأنعمنا عليه فأنبتنا فوقه شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق، وكل شجرة لا تقوم على ساق كالدُّباء والبِطِّيخ والحَنْظَل ونحو ذلك، فهي عند العرب يَقْطِين[٤]؛ لتظله وتقيه حر الشمس، قيل: خص الله تعالى هذا النوع من الشجر؛ إنعاما عليه؛ لأنه يجمع برد الظل، ولين اللمس،

---

(١) يراجع: جامع البيان: ٢١/ ١٠٨، والكشاف: ٤/ ٦١، ٦٢، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٣٣٤.

(٢) يراجع: مجاز القرآن لأبي عبيد: ٢/ ١٧٥، وجامع البيان: ٢١/ ١١١، ولسان العرب: ١٥/ ٤٩، مادة (عرا).

(٣) السَّقَمُ والسُّقْمُ: المرض يكون في البدن وفي النّفس، يراجع: المفردات في غريب القرآن: ص: ٤١٥، والكشاف: ٤/ ٦٢.

(٤) يراجع: جامع البيان: ٢١/ ١١٢، ولسان العرب: ١٣/ ٣٤٥، والتبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم: ص: ٢٧٨ وقيل: هو الدُّبَّاء خاصة أو القرع، يراجع: ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن لغلام ثعلب: ص: ٤٣٢.

وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه، فإن لحمه -عليه السلام- لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب. وهذا من تمام عناية الله تعالى به وإنعامه عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٩].

(لولا) حرف امتناع لوجود، والمعنى[1]: لولا أن تداركته نعمة من ربه، وهي توفيقه للتوبة والضراعة إليه سبحانه، وإنعامه تعالى عليه نعمة بعد نعمة، لطرحه الحوت أو البحر بالفضاء الخالي من الأَشجار وغيرها، وهو ملوم معاتب على ترك قومه بغير إذن من الله تعالى، ولكن أدركته رحمة الله وعنايته فَطُرِح سقيمًا غير مذموم: أي، غير ملوم أو معاتب؛ حيث تاب الله تعالى عليه ومحَّصه بهذا الابتلاء العظيم.

والتعبير بالتدارك الذي يدل على التفاعل للمبالغة في إدراك نعمة الله إياه، وتنكير نعمة للتعظيم؛ لأنها نعمة مضاعفة مكررة[2].

- وأما اجتباؤه، وجعله من الصالحين، وإرساله إلى قومه مرة أخرى:

فقد قال الله تعالى فيه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠].

---

(١) مستفاد من: الكشاف: ٤/ ٥٩٦، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٤، والتفسير الكبير: ٣٠/ ٦١٧، ومدارك التنزيل: ٣/ ٥٢٦، وإرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩، والتحرير والتنوير: ٢٩/ ١٠٥، ١٠٦، وغيرها من كتب التفسير.

والتدارك: تفاعل من الدرك بالتحريك، وهو اللحاق، أي: أن يلحق بعض السائرين بعضا، وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه [الصحاح: ٤/ ١٥٨٤، والمفردات في غريب القرآن: ص٣١٢، مادة درك،]. والنبذ: الطرح والإلقاء [مقاييس اللغة: ٥/ ٣٨٠، مادة (نبذ)]، ومذموم: مَلُومٌ مُعَاتَبٌ [لسان العرب: ١٢/ ٢٢٠، مادة (ذمم)].

(٢) مستفاد من التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٠٥.

وقال تعالى فيه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

وهذا تمام نعمته عز وجل على عبده يونس -عليه السلام-، حيث تداركته نعمة ربه فاستخلصه واصطفاه، وجعله من الكاملين في الصلاح، وعصمه من أَن يفعل فعلا يكون تركه أَولى، وشفعه في نفسه وفي قومه، وأرسله إليهم مرة أخرى، وهم مائة ألف أو يزيدون، أي: في مرأى الناظر، إذا رآهم قال: هم مائة ألف، أو أكثر[(١)].

وهكذا نجَّى الله تعالى نبيه يونس -عليه السلام- من هذا الغم والكرب، فلم يغرقه البحر، ولم يقتله الحوت، وزاده من فضله العظيم، في حادثة عجيبة غريبة كانت مقاييس البشر حاكمة بهلاكه فيها هلاكا محققا، لكن إرادة الله تعالى فوق كل شيء، وقَدَرُه الذي سبق به علمه يحمل دائما دلائل على قدرته سبحانه، وآيات من الحكمة، وأسرارا من العجب.

وفي هذا الحدث العظيم من الدروس والعظات -إضافة لما سبق-:

- وجوب الصبر والثبات عند الابتلاء.
- وجوب الرضا بالابتلاء، وعدم القنوط من رحمة الله.
- أن المؤمن الحق يزداد بالابتلاء تضرعا وقربا من الله تعالى.
- أهمية اللجوء إلى الله تعالى في كل المُلِمات.
- أن التزام الطاعة والثبات عليها حتى في أحلك الظروف كان السبب في نجاة يونس -عليه السلام- من الهلاك المحقق في مقاييس كل البشر، وفي

---

(١) يراجع: جامع البيان: ٢١/ ١١١، والكشاف: ٤/ ٦٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٤، ومدارك التنزيل: ٣/ ١٣٧، وإرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩، والتسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ١٩٧، ١٩٨، وفتح القدير: ٥/ ٣٣٠، وغيرها.

هذا درس عظيم للمؤمن، يعلم منه أن الأعمال الصالحة أيام الرخاء تنفعه أيام الشدائد، وتكون سببا بمشيئة الله تعالى في إزالة كربه ورفع محنته وكشف غمه؛ وفي هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: (تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ, يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ)[١].

- أن الله تعالى لا يخيب رجاء السائلين، ولا يَردُّ استغاثة المضطرين؛ قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

- أن الله تعالى واسع الفضل والمنة، يعطي السائلين بغير حساب.

- في هذا الحدث العظيم إشارة إلى أن خوارق العادات قد تتكرر في أي زمان؛ إكراما من الله تعالى لعباده الصالحين.

*****

(١) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب: معرفة الصحابة، باب: ذكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ٣/ ٦٢٣، ح(٦٣٠٣).

المبحث الثالث

إنجاب إسحاق، ويحيى، عليهما السلام

(إنجاب بعد اليأس !!)

توطئة:

في مقاييس البشر وعرفهم لا يمكن للمرأة العقيم العجوز التي يئست من المحيض أن تحمل وأن تلد وأن يعيش ولدها، هذا أمر مستحيل في تقديرهم، ثم هو فوق ذلك خارج عن الأسباب التي أجراها الله تعالى في هذا الكون، لكن قد يسبق في قَدَرِ الله تعالى حدوث ذلك، فيرفع الله تعالى الأسباب، ويقدِّر أمرا خارجا عن العادة، فتحمل العقيم العجوز من الشيخ الهرم، ويُقِرُّ الله عينهما بمولود يكبر ويكون قرة العين وفلذة الفؤاد، على غير ما تعارف عليه البشر واستقر في عقولهم!!.

نرى ذلك ماثلا في حدثين عظيمين وردا في كتاب الله تعالى، أولهما: إنجاب إسحاق، والثاني: إنجاب يحيى، عليهما السلام، وفي المطلبين الآتيين أتناول هذين الحدثين لأبين من خلالهما ما كان من مقاييس البشر، وما كان من سبق القدر، وما انطوت عليه الأحداث من اللطائف والهدايات.

المطلب الأول
إنجاب إسحاق عليه السلام
(إنجاب بعد اليأس !!)

وكان إنجابه أمرا عجيبا غريبا، خارجا عن مقاييس البشر!!؛ حيث اجتمعت في أبويه موانع الإنجاب في عرف البشر وعاداتهم، فقد كان أبوه إبراهيم -عليه السلام- شيخا هرما كبيرا، وكانت أمه سارة -رضي الله عنها- عقيما من قبلُ، وعجوزا آيسة من بعدُ!!.

وقد ورد ذكر ذلك الحدث في خمسة مواضع في كتاب الله تعالى:

الأول: في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

والثاني: في قول الله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦].

والثالث: في قول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣١].

والرابع: في قول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٣].

والخامس: في قول الله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٠].

ظاهر من صريح القرآن الكريم أن الخليل -عليه السلام- دعا الله تعالى أن يهبه من الصالحين، فوهبه إسماعيل -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩، ١٠١]؛ وكان إسماعيل -عليه السلام- من هاجر رضي الله عنها.

ويبدو -والله أعلم- أنه عليه السلام كان يرجو الله تعالى أن يهبه ولدا آخر، ولكن من زوجه سارة -رضي الله عنها-، وإن لم يرد ذكر ذلك في القرآن الكريم؛ لأن بشراهما بإسحاق لا معنى لها إذا لم تكن إجابة لدعاء وتحقيقا لرجاء طالما تعلق به القلب وسكن الفؤاد، ويعضد ذلك مجيء أسلوب تلك البشرى مؤكدا بكثير من المؤكدات، ولا يأتي التوكيد إلا لأسباب وأغراض يستدعيها الموقف والمقام.

وظاهر من نصوص القرآن الكريم أن الخليل -عليه السلام- وزوجه سارة -رضي الله عنها- كانا قد بلغا وقت البشرى مبلغا فَقَدَا معه الأمل في

الإنجاب؛ لما اجتمع عليهما من الموانع التي يستحيل معها ذلك في حكم العرف والعادة.

فقد روي أن إبراهيم كان ابن مائة سنة، وقيل: ابن مائة وعشرين، وكانت سارة ابنة تسعين سنة، وقيل: ابنة تسع وتسعون[١]، وذلك من المبهم الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، والمهم أنهما كانا قد بلغا مبلغا يستحيل فيه الإنجاب في حكم البشر، كما ظهر من النصوص القرآنية الكريمة.

لكنَّ قَدَرَ الله تعالى قد سبق بإنعامه عليهما بما تمنياه وتعلقا به، فكانت الهبة بالولد وولد الولد في وقت لا يُتصور فيه الإنجاب بحال من الأحوال؛ خرقًا لعادات البشر، وجزاءً لهما على صبرهما ويقينهما.

وفيما يأتي بيان لبعض ما اشتملت عليه آيات هذا الحدث العظيم من اللطائف والهدايات القرآنية:

اللطائف والهدايات:

<u>أولا: بشرى عجيبة غريبة:</u>

لما كانت تلك البشرى في تلك الحال الميؤوس منها خارجة عن المألوف والمستقر في مقاييس البشر جاء أسلوبها مؤكَّدًا ومقرَّرًا، ومن وجوه ذلك التوكيد:

* ورود قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ [هود: ٦٩]، مؤكَّدا باللام وقد، وتعاضد مع ذلك التوكيد في تقرير البشرى: التعبير بالماضي ﴿جَآءَتْ﴾ دلالة على التحقق والثبوت، وإضافة لفظ الرسل إلى ضمير العظمة "نا"، وتعريف "البشرى" بـ "أل" التي للعهد، إشارة إلى

---

(١) يراجع: [النكت والعيون للماوردي: ٢/ ٤٨٦، وبحر العلوم للسمرقندي: ٢/ ١٦٢، والوسيط للواحدي: ٢/ ٥٨٢، وتفسير السمعاني: ٢/ ٤٤٣.

أنها لكونها حق فهي معلومة بحيث لا يُشك فيها، وكذلك التعبير بلفظ "البشرى" الذي يتضمن الإخبار بما يفرح ويسر.

* وكذلك ورود قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٥٣] مؤكَّدا بـ(إنَّ)، وإسمية الجملة، وتآزر مع ذلك التوكيد في تقرير البشرى: التعبير بلفظ البشرى، ومجيئها مفصلة؛ حيث تضمنت بشارتين: إحداهما: البشارة بأنه ولد ذكر، والأخرى: بأنه يبقى حتى يبلغ ويصير عليما، أي: نبيا، وكذلك التعبير بالماضي ﴿بَشَّرْنَٰكَ ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت، ووصف البشرى بـ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الذي لا شك ولا ريب فيه مطلقا.

* وكذلك ورود قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨]، متضمنا تقريرا آخر للبشرى تمثل في: التعبير بالماضي ﴿وَبَشَّرُوهُ ﴾، والتعبير بلفظ "البشرى"، ومجيئها مفصلة متضمنة بشارتين كما سبق.

* وكذلك ورود قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١١، ١١٢]، متضمنا تقريرا آخر للبشرى، تمثل في: التعبير بالماضي ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ ﴾، وإسناده إلى ضمير العظمة "نا"، ومجيء البشرى مفصلة أكثر من سابقه؛ حيث أعلمه الله تعالى باسم الغلام قبل أن يولد، وبأنه يبقى حتى يبلغ ويصير نبيا من الصالحين.

وكذلك ورود قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١]، متضمنا تقريرا آخر للبشرى، تمثل في: التعبير بالماضي، وإسناده إلى ضمير العظمة، والتصريح باسم الغلام، ومجيئها

مفصلة متضمنة بشرى ثانية؛ حيث صُرِّح باسم الغلام قبل أن يولد، وبأنه يبقى حتى يكبر ويتزوج ويكون من نسله ولد اسمه يعقوب، وفي ذلك تأكيد لأمه أيضا بأنها ستعيش حتى ترى ولد ولدها.

وهكذا جاء أسلوب تلك البشرى مؤكَّدًا ومقرَّرًا؛ كما تنوع أسلوبها بين الخطاب والغيبة، والإجمال والتفصيل؛ مناسبة لحالهما من العجب والاستغراب، ولعل السر في ذلك هو غرابة الحدث من ناحية، ورحمة الله تعالى بهما وتثبيتهما من ناحية أخرى.

وظاهر من سياق البشرى أنها تضمنت تعظيما لإبراهيم -عليه السلام- وتشريفا له، حيث بشرَّه الله تعالى بها عن طريق جمع من الملائكة لا عن طريق ملَك واحد، وأضافهم سبحانه لذاته فقال: ﴿رُسُلُنَآ﴾ أي: الذين عظمتهم من عظمتنا.

ثانيا: عجب وذهول:

لقد عَجِب الخليل -عليه السلام- وزوجه سارة -رضي الله عنها- عَجَبًا شديدًا حين ألقيت عليهما البشرى، لأنها وإن كانت بشرى بما تعلقا به وتمنياه، إلا أن زمانه قد راح، وأوانه قد فات، وصار تحققه أمرا خارجا عن عادات البشر.

لقد صور القرآن الكريم عجبهما وذهولهما تصويرا بديعا، ونقل لنا المشهد كأنما نراه رأي العين.

* أما الخليل عليه السلام:

فقد صور القرآن الكريم عجبه في قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ

ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٦].

- وجاء عجبه -عليه السلام- من تلك البشرى في عبارتين:

الأولى: في قول الله تعالى على لسانه: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾:

وهو رد جِبليٌّ؛ لما استقر في عرف البشر أن الشيخ الهرم لا يولد له، وإن حدث كان الوليد ضعيفا نحيلا، لذا كان عجبه -عليه السلام- شديدا. قال الطاهر بن عاشور: "لأن شأن أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لا يعيشون غالبا إلا معلولين، ولا يولد لهم في الأكثر"[١].

وجمهور المفسرين[٢] على أنه -عليه السلام- قال ذلك على طريق التعجب؛ لخروج ذلك الأمر عن عادات الناس ومقاييسهم.

"وكان مقصده -عليه السلام- استعظام نعمة الله تعالى في ضمن التعجب العادي المبنيِّ على سنة الله تعالى في عباده، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه؛ يدل عليه قولُ الملائكة ﴿بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر: ٥٥] دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه"[٣].

وقيل: قاله على طريق الاستفهام الحقيقي عن الطريقة والكيفية لتحقق ذلك، مع كونه هو وامرأته على تلك الحال من الكبر، قال المفسرون: "استفهم

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ١١٩.

(٢) يراجع مثلا: جامع البيان: ١٧/ ١١٣، ومعالم التنزيل: ٣/ ٦١، والكشاف: ٢/ ٥٨١، والمحرر الوجيز: ٣/ ٣٦٦، والتفسير الكبير: ١٩/ ١٥١، والجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٥، والبحر المحيط: ٦/ ٤٨٥، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٤٦٤، وغيرها من كتب التفسير.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٥/ ٨١، ٨٢، وروح المعاني: ٧/ ٣٠٦.

منهم فقال: أبشرتموني أن يولد لي وأنا على الحال التي أنا عليها، أو يُرد إليَّ شبابي وشباب امرأتي؟"[١].

مع اتفاق الكل على ثبوت يقينه -عليه السلام- في قدرة الله تعالى على كل شيء، وتنزيهه عن الشك والإنكار[٢].

قلت: الأَوْلى أنه -عليه السلام- قاله على طريق التعجب، لا على طريق الاستفهام الحقيقي؛ بدلالة السياق؛ لأن الملائكة أجابوه بما يزيل تعجبه لا بما يوضح له الكيفية؛ حيث قالوا: ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: ٥٥].

والمَسُّ: "جَسُّ الشَّيْءِ أو مَسْكُه بِالْيَدِ"[٣]، وهو الإصابة، يقال: مسَّ الماءُ الجسدَ مسًّا: أصابه[٤]. قال الزمخشري: "ومن المجاز: مسَّه الكبر والمرض[٥].

و"أن" مصدرية، والمعنى: على مس الكبر إياي[٦]، وجملة ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾: حالية، والتقدير: في حالةٍ قد مسني فيها الكبر[٧]. يعنى: أبشرتموني مع مس الكبر بأن يولد لي، أي: أن الولادة أمر عجيب مستنكر

---

(١) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): ٦/ ٤٨٨، ويراجع: الكشاف: ٢/ ٥٨١، والتفسير الكبير: ١٩/ ١٥١، والبحر المحيط: ٦/ ٤٨٥، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١١/ ٦٦. وغيرها من كتب التفسير.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني: ٣/ ١٤٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٥/ ٨١.

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ٢٧١.

(٤) المصباح المنير للفيومي: ٢/ ٢١٣.

(٥) أساس البلاغة: ٢/ ٢١٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٥.

(٧) المحرر الوجيز: ٣/ ٣٦٥.

عادة مع الكبر[١]. وهذا دليل على أن الخليل -عليه السلام- كان قد بلغ من العمر مبلغا عظيما بحيث يستبعد معه الإنجاب.

والثانية: في قوله تعالى على لسانه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

حيث أكد -عليه الصلاة والسلام- تعجبه الأول بتعجب ثان فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾؛ إمعانا وزيادة في التعجب والاستبعاد، "نُزِّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم؛ لأنه يكاد يكون غير معلوم"[٢].

والمعنى: "بأي أعجوبةٍ تبشرونني!، فإن البشارة بما لا يُتصور وقوعُه عادة بشارةٌ بغير شيء، أو المعنى: بأي طريقةٍ تبشرونني"[٣]؛ لأن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب.

وقيل في تعليل تعجبه الثاني: "إن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظُم فرحه وسروره، واستطاب تلك البشارة، فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين، طلبا للالتذاذ بسماعها، وزيادة الطمأنينة والوثوق"[٤].

ومن الهدايات هنا: أن الخليل -عليه السلام- أبدى العجب والاستبعاد من كبر نفسه فقط، وكتم حال امرأته، ولم يصرح بعقمها ولا بكبر سنها وإياسها، مع أنه أخبرُ الناس بأن حملها في تلك الحال أشد عجبا وأكثر غرابة

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٨١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٤/ ٥٩.

(٣) الكشاف: ٢/ ٥٨١، والبحر المحيط: ٦/ ٤٨٥، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٥/ ٨١.

(٤) التفسير الكبير: ١٩/ ١٥١. بتلخيص.

واستبعادا؛ إذ كيف تحمل وتلد وهي العقيم من قبل، والعجوز التي يئست من المحيض من بعد؟!!. لكنه الحياء الجَمّ، والمبالغة في صون امرأته والمدارة عليها؛ حيث لم يذكرها بما يقلل من شأنها، حتى وإن كان حقيقة واقعة!!

وقد تابع المفسرون مجاهدا -رضي الله عنه- في قوله: "عجب من كبره وكبر امرأته"[(١)]، وفاتهم أنه -عليه السلام- تحاشى أن يذكر امرأته بشيء، وتعجب من كبر نفسه فقط، ونص القرآن شاهد على ذلك.

* وأما زوجه سارة رضي الله عنها:

فكان عجبها أشد وأعظم؛ لأن المانع من الإنجاب كان من جهتها أبلغ، من قبلُ ومن بعدُ، وقد صور القرآن عجبها في موضعين:

الموضع الأول: في قول الله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧١، ٧٢].

وقد ذكر المفسرون في المراد بقيامها وضحكها أقوالا[(٢)]، والمناسب للسياق والمقام في رأيي والله أعلم بمراده:

أن قيامها: كان على خدمة الأضياف[(٣)]؛ خاصة أنها كانت في بيت النبوة والكرم، ويبين ذلك قوله تعالى في الموضع الآخر: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ

---

(١) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان: ١٧/ ١١٣.

(٢) يراجع: جامع البيان: ١٥/ ٣٨٩- ٣٩٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٦/ ٢٠٥٥، والنكت والعيون للماوردي: ٢/ ٤٨٤.

(٣) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٥/ ٣٨٩، وتأويلات أهل السنة: ٦/ ١٥٥، ولطائف الإشارات: ٢/ ١٤٧، وتفسير القرآن للسمعاني: ٢/ ٤٤٢، وغرائب التفسير للكرماني: ١/ ٥١٢، والكشاف: ٢/ ٤١٠، وزاد المسير: ٢/ ٣٨٦، التفسير الكبير: ١٨/

﴿وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: ٢٩]. ويبعد أن يكون قيامها لشيء آخر مما قيل؛ كالصلاة؛ إذ كيف تترك الأضياف مع زوجها وتذهب لتصلي دون أن تقوم معه بواجب إكرامهم، وأبعد منه ما قيل: إن قيامها كان لتتسمع حديثهم مع زوجها.

وأن ضحكها: كان هو الضحك المعروف[١]، وأن سببه كان التعجب والسرور من تلك البشارة[٢]. والضحك يكون للسرور وللتعجب؛ قال الراغب: "وضحكها كان للتعجب، ويدلك عليه قولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: ٧٢]"[٣]. ويدل عليه أيضا قول الملائكة لها: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: ٧٣].

وكان ضحكها تعجبا لغرابة ما بُشِّرت به وهي في تلك الحال، وكان سرورا –دون شك– لكونها بُشِّرت بما كانت تتمناه وتتلهف عليه؛ هذا هو الظاهر من حالها ومن سياق الآيات.

٣٧٣، والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٦٦، ولباب التأويل للخازن: ٢/ ٤٩٣، وفتح القدير: ٢/ ٥٧٩، وغيرها من كتب التفسير.

(١) وهو قول جمهور المفسرين، يراجع المصادر السابقة نفس المواضع: وكذلك: البحر المحيط: ٦/ ١٨١، ولباب التأويل: ٢/ ٤٩٣، وروح المعاني: ٦/ ٢٩٤، فقد نصوا على أنه قول الجمهور.

(٢) ذكر كثير من المفسرين أن سببه كان التعجب، وذكر كثير منهم أن سببه كان السرور بتلك البشرى، وذكر بعضهم السببين، يراجع: جامع البيان: ١٥/ ٣٨٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٦/ ٢٠٥٤، ولطائف الإشارات: ٢/ ١٤٧، والوسيط للواحدي: ٢/ ٥٨١، وزاد المسير: ٢/ ٣٨٦، وغرائب التفسير للكرماني: ١/ ٥١٢، ومعالم التنزيل للبغوي: ٢/ ٤٥٧، والتفسير الكبير: ١٨/ ٣٧٤، والتسهيل لابن جزيء: ١/ ٣٧٤، والبحر المحيط: ٦/ ١٨١.

(٣) المفردات: ص٥٠١، ٥٠٢.

* وقد ذهب من رأي ذلك إلى أن في الآية: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١]. تقديما وتأخيرا، والتقدير: "وامرأته قائمة، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكت تعجبا وسرورا، وقالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز .....؟"(١).

قلت: يمكن توجيه المشهد دون تقدير تقديم وتأخير؛ لأن المواضع الأخرى تفسره وتبينه.

فسارة -رضي الله عنها- كانت قائمة مع زوجها على خدمة الأضياف، تروح وتجيء، وقد كان الحديث بالبشرى متجاذَبا بين الخليل والملائكة؛ كما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحجر: ٥٣ - ٥٥].

فلا جرم سمعتهم وهم يبشرونه، فأقبلت مسرعة مبدية عجبها وذهولها، ضاحكة تعجبا وذهولا وسرورا، ضاربة يدها على جبهتها قائلة: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وبهذه العبارة الموجزة التي تناسب هول الموقف وشدته عبرت سارة عما نزل بها حين سمعتهم، إذ أصلها: كيف ألد وأنا عجوز عقيم؟!!، أو: أتلد عجوز عقيم؟!!! فاختصرت القول من شدة دهشتها وتعجبها وسارعت إلى المطلوب من أقرب طريق فقالت: عجوز عقيم!!!

والسياق والأسلوب في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩] يؤيدان ذلك؛

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن: ٢/ ٢٢، والطبري في جامع البيان: ١٥/ ٣٨٩، ونقله كثير من المفسرين.

فالتعبير بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب في (فأقبلت)، و(فصكت) ينبئ بأنها سمعتهم من قريب وهم يبشرونه فأقبلت عليهم مسرعة مذهولة من هول تلك البشرى قائلة قبل أن يوجهوا حديثهم إليها: "عجوز عقيم"!!.

فتوجه حديث الملائكة حينئذ إليها، وألقوا عليها البشرى هي أيضا، ولكن بزيادة تؤكدها وترفع العجب؛ مناسبة لحالها من اليأس، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود: ٧١]؛ تكريما لها وإجلالا، ورفعا لشدة تعجبها؛ حيث كان المانع من الإنجاب من جهتها هي أقوى وأظهر؛ فما كان منها إلا أن فصَّلت تعجبها واستبعادها قائلة: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود: ٧٢].

ويكون تقدير الكلام في موضع سورة هود: وامرأته قائمة على خدمة الأضياف إذ سمعتهم يبشرونه بالغلام العليم فضحكت تعجبا وسرورا وأبدت شدة عجبها قائلة: عجوز عقيم!!!، فتوجه حديث الملائكة إليها وبشروها بأبلغ مما سمعت؛ بالولد وولد الولد، ففصَّلت ما في نفسها من العجب والاستبعاد، قائلة: يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب!!!. والله تعالى أعلم.

هذا، وقد ذكر الله تعالى تعجبها في هذا الموضع مفصَّلا؛ حيث قال تعالى على لسانها: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود: ٧٢].

وهذا بلا ريب قولُ من تَمَلَّكَه العَجَبُ من كل ناحية، فاستقصى الأمر من جميع جوانبه فوجده -بحكم العادة- محالا!!، لقد ذكرت حالَها من الإياس، وحال زوجها من الشيخوخة، ولم تكتف حتى أكدت ذلك بأنه شيء عجيب.

- قالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ : والوَيْلُ: حُلولُ الشَّرِّ، والويلة: الفَضِيحَةُ، أَو هو تَفْجِيعٌ، يقالُ: وَيْلَهُ وَوَيْلَكَ ووَيْلي[١]. وهي عبارة دعائية تقال في التفجع عند الإيذان بورود الأمر العظيم الفظيع، والأصل فيها: يا ويلتي، فأبدل من الياء الألف؛ لأنه أخف من الياء والكسرة[٢].

وتستعملها العرب عند التعجب من الشيء والاستنكار له[٣]؛ قالتها سارة -رضي الله عنها- تعبيرا عن شدة تعجبها واستبعادها لما بُشِّرت به وهي عجوز قد فاتها أوان الإنجاب، "ولم تقصد بها الدعاء على نفسها بالويل"[٤]. والنداء فيها استعارة تبعية بتنزيل الويلة منزلة من يعقل حتى تنادَى، كأنها تقول: يا ويلتي احضري هنا فهذا حينك[٥].

- ثم أفصحت عما انطوى عليه قلبها من التعجب والاستبعاد:

- فتعجبت من حالها فقالت:﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾!!!: أي: قالت في دهشة وعجب واستغراب: يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن بعيد!!!.

ولا يخفى أيضا ما يحمله تعجبها هذا من الخجل والحياء من وقوع ذلك الأمر لها وهي عجوز آيسة!، وعادة النساء الاستحياء من الإنجاب في هذه السن المتقدمة.

---

(١) القاموس المحيط: ص١٠٦٩.

(٢) التفسير الوسيط للواحدي: ٢/ ٥٨١، والمحرر الوجيز: ٣/ ١٩٠.

(٣) جامع البيان للطبري: ١٥/ ٣٩٨.

(٤) النكت والعيون: ٢/ ٤٨٦.

(٥) التحرير والتنوير: ١٢/ ١٢٠.

- وتعجبت من حال زوجها فقالت: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ أي: وهذا زوجي إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء[١].

- وزادت تقرير تعجبها فقالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾: وهي جملة مؤكدة لتعجبها السابق، ولذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال[٢].

والمعنى: إن هذا لشيء عجيب أن يولد ولد من زوجين هذا حالهما، زوج كبير هرم، وزوجة عجوز آيسة!!

وكان تعجبها الشديد -وكذلك الخليل- من حيث العادة التي أجراها الله تعالى، لا من حيث قدرة الله تعالى على أن يهبها الولد في أي وقت، فلم يكن ذلك منها تكذيباً ولا شكًّا في قدرة الله تعالى، ولكن كان استغرابا واستبعادا بحكم العادة الجارية[٣]، ولا ريب أن ما خرج عن العادة يكون مستغربا ومستنكرا.

والموضع الثاني: في قول الله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: ٢٩].

وفي هذا المشهد القرآني الكريم تصوير بديع وتجسيد بليغ لشدة تعجبها حين سمعت البشرى.

- فقوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾: عطفا بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، يوحي بأنها لم تتحمل تلك البشرى ليقينها باستحالة ذلك عادة، فكان منها ذلك الإقبال إسراعا في الرد لشدة دهشتها واستغرابها.

---

(١) أصل البعل القائم بالأمر، فأطلق على الزوج؛ لأنه يقوم بأمر الزوجة. جامع البيان: ١٥/ ٣٩٩. وشيخا: حال من بعلي مؤكدة; إذ ليس الغرض الإعلام بأنه بعلها في حال شيخوخته دون غيرها، والعامل فيه معنى الإشارة. التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ٧٠٧.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢/ ١٢١.

(٣) وعلى هذا أجمع المفسرون.

وسواء كان المراد بإقبالها: حقيقته، وهو قول كثير من المفسرين[١]؛ حيث كانت تتحرك في البيت، قائمة على إكرام الأضياف مع زوجها، فسمعتهم يبشرونه، فأقبلت عليهم متعجبة من تلك البشرى قائلة ما حكاه القرآن عنها. أو أنها أقبلت على أهلها، حيث كانت في خدمة الأضياف، فلما بشروا زوجها استحيت وأعرضت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يذكره بلفظ الإدبار عن الملائكة"[٢]، إكراما للملائكة.

أو كان المراد به: معناه، وهو قول بعض المفسرين، أي: أنها لم تُقْبل من موضع إلى موضع، إنما هو كقولك: "أقبل يصيح، وأخذ يتكلم"، والمعنى: فأخذت امرأته في صرة ...[٣]. وهو قول مرجوح في رأيي، والله أعلم؛ لأنه مبني على أنها كانت واقفة تسمع حديث الملائكة لزوجها، فتوجهت بالرد عليهم حين سمعتهم يبشرونه تلك البشرى العجيبة، وسبق التعليق عليه.

سواء كان هذا أو ذاك، فإن فيه تصويرا لحركتها الجِبِلِّية وردة فعلها الفطرية؛ جَسَّد لنا شدة تعجبها واستبعادها.

---

(١) يراجع: تأويلات أهل السنة: ٩/ ٣٨٦، والكشاف: ٤/ ٤٠٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ١٧٨، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١٧٧، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٤٦، والتسهيل لابن جزيء: ٢/ ٣٠٩، والبحر المحيط: ٩/ ٥٥٧، والدر المصون: ١٠/ ٥٢، وغيرها.

(٢) وهو قول الإمام الرازي ذكره في التفسير الكبير: ٢٨/ ١٧٧، وهو قول رائق.

(٣) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٨٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص: ٤٢١.

– وقوله تعالى: ﴿فِي صَرَّةٍ﴾: أي: في ضجة وصيحة، والمراد هنا شدة الصياح(١)، أي: أقبلت تولول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ [هود: ٧٢](٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فِي صَرَّةٍ﴾، بدل (صارة): دلالة على أن هذا الصياح كان متمكنا من كيانها كله، فكأنها كانت تصيح بكل جوارحها.

وقوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فضربتْ بجميع أصابعها جبهتها أو جبينها، ومعنى الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض، فعلت ذلك تعبيرا عن شدة تعجبها، كعادة النساء إذا أنكرن شيئا، أو حياء مما بُشِّرت به وهي المُسِنَّة الكبيرة(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: تفصيل لحالها، فإنها بعدما أظهرت شدة تعجبها واستبعادها بحالها وفعلها وقولها أكدت ذلك بشرح حالها مستفهمة متعجبة قائلة: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: "إني عجوز عقيم، فكيف ألد؟!! أو

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٥٥، ومعاني القرآن للفراء: ٣/ ٨٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص: ٤٢١. وأخرجه الطبري: (٢٢/ ٤٢٦) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

(٢) الوسيط للواحدي: ٤/ ١٧٨، والتفسير الكبير: ٢٨/ ١٧٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٧/ ٣٩٣، وغيرهما.

(٣) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٨٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص: ٤٢١، والوسيط للواحدي: ٤/ ١٧٨، ومعالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٢٨٥، والكشاف: ٤/ ٤٠٢، وغيرها.

أتلد عجوز عقيم؟!!"[١]. ففصَّلت هنا موانعها من الإنجاب -بحكم العادة-، فاستبعدت حملها وهي عجوز آيسة، وعقيم من قبل لا تحمل.

والعجوز من النساء: هي المرأة المُسِنَّةُ، ولا يؤنث بالهاء[٢]، سميت بذلك لِعَجْزِهَا في كثير من الأمور[٣]. والعقيم: هي التي لا تلد، أو لا تقبل ماء الفحل، يقال: عَقِمَتِ المرأة والرّحم، ومن الرياح التي لا تلقح سحابا ولا شجرا، فهي لا بركة فيها[٤].

وفي قولها: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ إيجاز استدعاه ضيق المقام عن إطالة الكلام، بسبب ما اعتراها من الدهشة والعَجَب، فلم تتكلم إلا بما يفيد الغرض، فذكرت المانع من قِبَلِها فقط بكلام موجز؛ إسراعا في الوصول إلى المطلوب من أقرب طريق، لضيق المقام عن التفصيل.

لقد بين هذا المشهد القرآني الكريم شدة تعجبها واستبعادها، فصور حركتها وهيئتها وحالتها النفسية وتعبيرها عن تعجبها واستبعادها لما هو مستحيل في نظرها، ونقل إلينا المشهد كأننا نراه رأي العين.

وكيف لا تعجب، وهو عطاء إلهي بغير أسباب؛ أدهشَها، وأذهبَ لُبَّها، وطَيَّر عقلها، حتى أقبلت تولول مبدية تعجبها، ولسان حالها ومقالها ينطق باستحالة ذلك -بحكم العادة-؛ فهي أدرى بما نالها من العقم سابقا ومن العجز لاحقا.

---

(١) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٨٧، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص: ٤٢١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ٥٥، وجامع البيان للطبري: ٢٢/ ٤٢٨، والوسيط للواحدي: ٤/ ١٧٨، والكشاف: ٤/ ٤٠٢، وغيرها.

(٢) المصباح المنير: ٢/ ٣٩٤، .

(٣) المفردات للراغب: ص٥٤٨.

(٤) يراجع: لسان العرب: ١٢/ ٤١٢، والمفردات للراغب: ص٥٧٩، مادة (عقم).

ثالثا: تطمين وتثبيت:

ولما كانت تلك البشرى خارجة عن عقول البشر، وصدر من الخليل وزوجه بحكم الفطرة البشرية ما يستبعدها من حيث العادة الجارية، لا من حيث قدرة الله تعالى على كل شيء، لا جرم طمأنهما الله تعالى وثبتهما لتلقيها بقلوب مطمئنة.

* أما الخليل عليه السلام:

فإنه لما قال متعجبا بحكم فطرته البشرية، وما عرفه من سنة الله تعالى في خلقه: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: ٥٤] طمأنته الملائكة فقالوا: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر: ٥٥].

ومعنى ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: بشرناك باليقين الذي لا خُلْفَ فيه، فإن ذلك وعد الله تعالى، وهو لا يخلف الميعاد، ولا يستحيل عليه شيء؛ فإنه القادر على كل شيء[1]، وفي هذا تثبيت لفؤاده عليه السلام وتطمين له.

ومعنى ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: القنوط: هو اليأس من الخير[2]، أي: فلا تكن من الآيسين من حصول الولد في تلك الحال.

وهو نهي إرشاد وتذكير أريد به طمأنته وتثبيته، وحثه على التسليم لأمر الله تعالى مهما خرج الأمر عن نطاق العقل؛ لأنه عليه السلام منزه عن القنوط من رحمة الله، ولهذا "قالوا له بطريق الأدب المناسب لمقامه: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ

---

(١) يراجع مثلا: تفسير السمعاني: ٣/ ١٤٣، والتفسير الوسيط للواحدي: ٣/ ٤٧، وفتح القدير: ٣/ ١٦٢، وتفسير أبي السعود: ٥/ ٨١، وروح المعاني: ٧/ ٣٠٦.

(٢) يراجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ١٨١، ومعاني القرآن للنحاس: ٦/ ٣١٤، والمفردات للراغب: ص٦٨٥.

﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، أي: فلا تكن من زمرة القانطين، ولم يقولوا: (فلا تكن قانطا) حتى لا يفرضوا كونه قانطا؛ لرفعة مقامه عن ذلك"[١].

فما كان من الخليل بعد هذا التذكير والتثبيت والحث على التسليم إلا أن قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦]، وهو استفهام إنكار في معنى النفي، ولذلك استثنى منه (الضالون)، ومرادُه عليه السلام: نفيُ القنوط عن نفسه على أبلغ وجهٍ، أي ليس بي قنوطٌ من رحمة ربي، وإنما الذي أقول لبيان منافاةِ حالي لفيضان تلك النعمةِ الجليلة عليّ، وهذا يدل على أنه عليه السلام لم يكن قانطا، ولكنه استبعد حصول ذلك بحكم العادة الجارية، فظنت الملائكة به قنوطا، فنفى ذلك عن نفسه وأخبر أن القانط من رحمة الله ضال، والضالون: هم المكذبون، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب، أي: إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي[٢].

* وأما زوجه سارة رضي الله عنها:

فقد بولغ لها في البشرى وفي التطمين كذلك؛ حيث كان أمر الإنجاب في حقها أشد عجبا وأكثر استبعادا، بل مستحيلا في عرف البشر؛ لعقمها من قبلُ وإياسها من بعدُ، كما أن الخليل -عليه السلام- ما كان ليحتاج إلى هذا القدر من التطمين مثلها، ومكانته من الله تعالى لا تخفى، فلا جرم ذكر القرآن الكريم عجبها في موضعين، وذكر عجب الخليل في موضع واحد، وبولغ لها في البشرى وفي التطمين.

---

(١) ملخص من التحرير والتنوير: ١٤/ ٦٠.

(٢) مستفاد من: الوسيط للواحدي: ٣/ ٤٧، ولباب التأويل: ٣/ ٥٨، ٥٩، وتفسير أبي السعود: ٥/ ٨٢، وفتح القدير: ٣/ ١٦٢، والتحرير والتنوير: ١٤/ ٦٠، وغيرها.

وذلك أنها لما سمعت الملائكة تبشر زوجها بُغتت وفوجئت بما لم تكن تتوقعه أبدا في تلك الحال، ولهول الموقف أقبلت عليهم -وكانت قد عرفت أنهم ملائكة[١]- تصيح وتولول ضاربة بيدها على جبينها كما تفعل النساء، تعجبا واستبعادا واستحياء، قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٩]، ولم يكن حديث الملائكة حينئذ معها، بل كان مع الخليل عليه السلام.

فأجابتها الملائكة عن تعجبها واستبعادها بما يطمئنها ويثبت فؤادها؛ قال تعالى: ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾: الكاف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر ما سَمِعْتِ، لا ريب فيه[٢]، وهذا تأكيد وتثبيت لها، لتطمئن ويذهب عنها ذهولها ودهشتها، ويجوز أن يكون الوقف ههنا تاما.

---

(١) الواضح من سياق الآيات أنها كانت قد عرفت أنهم رسل الله تعالى، جاءوا للقضاء على قوم لوط عليه السلام، ففي الذاريات: ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٢٩] وفي هود ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ..... وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].
وبدليل أنها ردت على الملائكة وألقت للأمر بالها وكلَّ كيانها، دون أن تسألهم عن هويتهم، وهم يتحدثون في أمر جلل بالنسبة لها..

(٢) هذا ما أراه والله تعالى أعلم، وهو قول المحققين في إعراب قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم: ٨، ٩]. يراجع: إعراب القرآن للنحاس: ٣/٦، ومعاني القرآن له: ٤/ ٣١٣، و٤/ ٣٢٠، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب: ٢/ ٤٥٠، وإعراب القرآن للباقولي - منسوب خطأ للزجاج: ١/ ١٩٧، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري: ٢/ ٨٦٧.

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾: أي: قضى ربك وحكم، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنه هو الحكيم العليم.

وفي هذا من التطمين والتثبيت ما فيه، حيث أحالوها إلى قضاء الله تعالى وحكمه، فهو القادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، العليم بكل شيء، وما عليها إلا التسليم والرضا، والفرح بعطاء الله تعالى، خالق الأسباب والمسببات.

- ولما سمعت البشرى وأبدت عجبها واستبعادها وطمأنتها الملائكة، زادوها تكريما، وتوجه خطابهم إليها، وشافهوها هي أيضا بالبشرى تشريفاً لها، وتحقيقاً أنه منها لا من غيرها، فبشروها بالولد وابن الولد؛ قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

ومعنى هذا: أنها ستحمل في تلك الحالة العجيبة وتلد إسحاق، وأنها ستعيش حتى يكبر ويتزوج وينجب ولده يعقوب، وهذا تمام التأكيد والتطمين والتثبيت، فلن تموت مثلا بعد ولادتها إسحاق، أو بعد ولادته بزمن قليل، بل

** وليست الكاف ههنا للتشبيه كما ذهب جل المفسرين، وعليه قالوا: المعنى: "مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به قال ربك". يراجع: جامع البيان: ٢٢/ ٤٢٨، ومعاني القرآن للزجاج: ٥/ ٥٥، ولطائف الإشارات: ٣/ ٤٦٧، والوسيط للواحدي: ٤/ ١٧٨، ومعالم التنزيل: ٤/ ٢٨٥، والكشاف: ٤/ ٤٠٢، والمحرر الوجيز: ٥/ ١٧٨، والجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٤٧، ومدارك التنزيل: ٣/ ٣٧٦، ولباب التأويل: ٤/ ١٩٥، البحر المحيط: ٩/ ٥٥٧، وغيرها من كتب التفسير.

وهو تأويل بعيد، أوقعهم فيه اعتبارهم الكاف هنا للتشبيه، فحاولوا خلق التشبيه في مكان لا يجمل فيه، فجاءوا بهذا التأويل، وتابع بعضهم بعضا في نقله.

** فالكاف ههنا -عند التحقيق- ليست للشبيه، وإنما لتأكيد المعنى وتحقيقه وتثبيته. يراجع: من بلاغة القرآن للأستاذ/ أحمد البيلي البدوي: ص١٦٥، ١٦٦، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني: ٢/ ٢٨٥.

إنها ستعيش زمنا تتمتع به، حتى يشب ويكبر بين يديها، وتقر عينها به، وترى حفيدها يعقوب منه.

وتلك نعمة عظيمة ومنة كبرى لامرأة فقدت كل أسباب الإنجاب في حكم البشر، وفيها من التطمين ما فيها.

ولكنها من هول البشرى وعِظَم العطاء زاد تعجبها واستبعادها، ففصَّلت تعجبها تلك المرة، فذكرت حالها وحال زوجها، فقالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود: ٧٢]؛ فطمأنتها الملائكة وثبتوها على التفصيل أيضا؛ حيث قالوا: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧٣].

فأولا: طمأنوها بأن الأمر ما سمعتِ، وأن هذا أمر الله وقضاؤه، لأنه هو الحكيم العليم.

فلما زاد استبعادها وعجبها طمأنوها ثانيا، بتنبيههم إياها وتذكيرهم لها بأنه ما ينبغي لها أن تتعجب من أمر الله وقدرته وحكمته؛ "لأنها من بيت النبوة، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ ﴾، وهو كلام مستأنف عُلل به إنكارهم تعجبها، كأنه قيل: إياكِ والتعجب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، وهي مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب"[١].

(١) ملخص من الكشاف: ٢/ ٤١١.

﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧٣]. أي: إنه حميد يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة، مجيد كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات، والجملة تعليل لقوله: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾[(١)].

وبذلك التطمين والتثبيت الذي ذُكر مجملا ومفصلا أزالت الملائكة من نفسها كل عجب واستبعاد إزالة تامة.

<u>هذا، ومما يستفاد من هذا الحدث العظيم إضافة لما سبق:</u>

- وجوب الثقة في قدرة الله تعالى على كل شيء، مهما فُقِدَت الأسباب وفات أوانها.

- أن مقاييس البشر عاجزة وقاصرة دائما عن إدراك ما أخفاه الله في قَدَره، مهما بلغ العقل رسوخا، ومهما بلغ اليقين ثباتا؛ لأجل هذا وجب التسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

- أن الإنسان هو الإنسان، مهما كان نبيا أو رسولا، ومهما بلغ من اليقين، فإنه لا ينفك عن بشريته التي ترتبط بسنن الله تعالى في هذا الكون، فإذا خرج الأمر عن تلك السنن الكونية بلغ منه غاية العجب، لكن الإيمان القوي يحمل المرء على التسليم لقضاء الله تعالى وقدره، وإن وقع أول الأمر في العجب والذهول، والعود أحمد.

- أن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، وأن فضله تعالى واسع، لا يَحُدُّه حَدٌ ولا يَعُدُّه عَدٌ، وأنه تعالى المتفضل أولا والمتفضل آخرا، وأنه عز وجل يعطي سائليه أكثر مما سألوا وأعظم مما طلبوا.

*****

---

(١) فتح القدير للشوكاني: ٢/ ٥٨٠.

المطلب الثاني
إنجاب يحيى عليه السلام
(إنجاب بعد اليأس !!)

وكان إنجابه -عليه السلام- أيضا أمرا في غاية العجب، خارجا عن مقاييس البشر!! حيث كان أبوه شيخا هرما كبيرا، وكانت أمه عقيما من قبلُ، وعجوزا آيسة من بعدُ!!.

يذكر القرآن الكريم أن زكريا -عليه السلام- كان كافلا لمريم ابنة عمران، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها رزقا في غير أوانه (قيل: فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[(١)])، فلما شاهد وقوع ذلك الأمر المخالف لمقاييس البشر كرامة لها امتد أمله إلى طلب أمر يخصه هو خارج عن مقاييس البشر أيضا، لفقدانه أسبابه وفوات أوانه، وهو الإنجاب، فدعا الله تعالى ورجاه أن يهبه ولدا يلي أمر الدين من بعده؛ قال الله تعالى في ذلك: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨].

"أي: (هنالك) في ذلك الزمان دعا زكريا ربه، أو هنالك في ذلك المكان الذي كان قاعدا فيه عند مريم وشاهد تلك الكرامات دعا زكريا ربه"[(٢)].

وقد ورد ذكر هذا الحدث العظيم في ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالى:

---

(١) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان: ٦/ ٣٥٥، ٣٥٦، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٤٠، عن عكرمة.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٥٩، والتفسير الكبير: ٢٢/ ٢٠٩، بتصرف.

الأول في سورة آل عمران: قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٨ – ٤١].

والثاني في سورة مريم: قال الله تعالى: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١ – ١٥].

والثالث في سورة الأنبياء: قال الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ

زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩ – ٩٠].

اللطائف والهدايات:

تضمنت آيات ذلك الحدث العظيم كثيرا من لطائف المعاني ورقائق الهدايات، أذكر منها ما يسره الله تعالى لي مندرجا تحت النقاط الآتية:

أولا: دعاءُ واثقٍ وتضرعُ مضطرٍ:

تبدأ مشاهد هذا الحدث العظيم بدعاء سيدنا زكريا –عليه السلام– وتضرعه لربه سبحانه لمَّا مسه الكبر هو وزوجه العقيم، وخشي على أمر الدين أن يفسده مواليه من بعده، وكان قد فَقَدَ أسباب الإنجاب هو وزوجه في حكم العرف والعادة، لكن ليقينه بالله تعالى تمام اليقين، وثقته فيه سبحانه كمال الثقة؛ سأل الله تعالى ورجاه أن يهبه ولدا يرثه في النبوة، ليقوم بأمر الدين من بعده؛ فدعا الله تعالى دعاء المضطر الواثق وقدَّم بين يدي ذلك كل ما أمكنه من التذلل والتضرع.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٣–٦].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وقد تضمن دعاؤه -عليه السلام- كثيرا من دقائق المعاني ولطائف الهدايات، التي ناسبت حاله وهو يدعو الله تعالى أن يخرق له الأسباب، ويحقق له أمنية فوق ما يعرفه البشر؛ لتمام ثقته في ربه، وكمال يقينه به سبحانه، ومن ذلك:

* في دعائه -عليه السلام- أن يهبه الله تعالى الولد مع فَقْدِه هو وزوجه كل الأسباب دليل واضح على كمال ثقته في الله تعالى، وتمام يقينه فيه سبحانه أن لا يخيب دعاءه، وإن كان طلبه خارجا عن مقاييس البشر، وهذا مقام الأنبياء والمرسلين.

ولهذا ينبغي على العبد حين يدعو الله تعالى أن يعزم المسألة وأن يُعَظِّم الرغبة؛ لما أخرجه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلا يَقُلْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)[1].

* ومن سمو دعائه وكماله أنه ما طلب الولد ليستأنس به أو لينال به حظا من الدنيا[2]، وإنما طلبه لأمر الدين؛ يدل عليه:

- قوله تعالى على لسانه: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ [مريم: ٦]، أي: يرثني في النبوة، ويرث من آل يعقوب فيها أيضا، وهذا دليل على علو الهمة في طلب الولد، إنه يريده ليقوم بأمر الدين من بعده، كما قام به إسماعيل بعد إبراهيم، ويعقوب بعد إسحاق، ويوسف بعد يعقوب، وسليمان بعد داود عليهم السلام.

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري: في صحيحه: كتاب: الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له: ٨/ ٧٤، ح(٦٣٣٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب: الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت: ٤/ ٢٠٦٣، ح(٣٦٧٩)، واللفظ له.

(٢) مع أن سؤال الله الدنيا غير ممنوع ما دام في الخير.

- وكذلك تقييده في دعائه بأن يكون الولي رضيا؛ حيث قال: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: ٦]، أي: واجعل يا ربّ الولي الذي تهبه لي مرضيا ترضاه أنت، ويرضاه عبادك دينا وخُلُقا، ورضيًّا: فعيل بمعنى مفعول[١]، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي: راضيا منك، وراضيا بتقديرك[٢].

- وكذلك تقييده بأن تكون الذرية طيبة؛ حيث قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عمران: ٣٨]، والمراد بالذُّرِّية الطيبة: النسل المبارك التقي، ولفظ الذُّرِّية؛ يكون للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والمراد به ههنا: ولدٌ واحدٌ؛ لقوله: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: ٥]، قال الفرَّاء: وأنَّث (طَيِّبَة)؛ لتأنيث لفظ الذُّرِّية[٣]. والمعنى: رب هب لي من عندك ولدا مباركا تقيا صالحا، وذلك من أفضل ما يعين على أمر الدين.

* ومما يدل على شدة تذلُّلِهِ وخضوعه لله تعالى، ومعاناته واضطراره للعقب الذي يقوم بأمر الدين من بعده دعاؤه بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩] أي: رب لا تدعني وحيدا لا ولد لي، وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت، قال الآلوسي: "وفيه ثناء على الله تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطارٌ لسحائب لطفه وكرمه عَزَّ وَجَلَّ"[٤].

---

(١) يراجع: جامع البيان: ١٨/ ١٤٧، والتفسير البسيط للواحدي: ١٤/ ١٩٧، وزاد المسير: ٣/ ١٢٠، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٨٢، والبحر المحيط: ٧/ ٢٤٢.

(٢) لطائف الإشارات: ٢/ ٤٢٠.

(٣) يراجع: معاني القرآن للفراء: ١/ ٢٠٨، والتفسير البسيط للواحدي: ٥/ ٢١٥.

(٤) روح المعاني: ٩/ ٨٣، بتصرف.

* أنه –عليه السلام– ابتدأ دعاءه بلفظ الربوبية المنبئ عن الإحسان والتربية والرعاية واللطف والإصلاح؛ مبالغة في التضرع والخضوع، ومناسبة لحاجته واضطراره إلى إحسان ربه ولطفه وإنعامه.

"ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجابَ له دعاؤه فليدعُ الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته"(١).

* وفي مجيء دعائه –عليه السلام– محذوف حرف النداء في المواضع الثلاثة دلالةٌ على أنه كان في أقرب منازل القرب من الله تعالى، حتى لم يحتج إلى ذكر أداة نداءٍ له لشدة قُربِه، كما أن فيه دلالة على شدة اضطراره وحاجته لما كان يدعو به.

* وقد ظهر من عبارات دعائه –عليه السلام– كثرة إلحاحه، وشدة استغاثته ورجائه؛ وهكذا المحبُّون، والمضطرون كذلك، حيث أخبر الله تعالى عن دعائه –عليه السلام– مرة بلفظ الدعاء، ومرة بلفظ النداء، وأخرى بوصف النداء الخفي؛ وكذا مجيئه بصيغتي الطلب، الأمر والنهي المقصود بهما الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

وهذا كله يدل على كثرة الإلحاح وشدة الاستغاثة؛ فكأنه عليه السلام ما ترك سبيلا ولا أسلوبا للطلب والرجاء إلا طرقها، سرا وجهرا، إجمالا وتفصيلا، باللسان وبالقلب، وتلك سنة المرسلين؛ لأن الله تعالى يحب الإلحاح في الدعاء.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٥٤.

وقد ثبت ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاثًا)[١]. قال النووي رحمه الله: "فيه استحباب تكرير الدعاء ثلاثا، وقوله: (وَإِذَا سَأَلَ): هو الدعاء, لكنْ عَطَفَهُ لاختلاف اللفظ توكيدًا"[٢]. وبوب البخاري -رضي الله عنه- في كتاب الدعوات من صحيحه، فقال: بَاب تَكْرِير الدُّعَاء، ثم ذكر فيه حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: (سُحِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَا وَدَعَا)[٣].

* وظهر كمال إخلاصه[٤] وتمام أدبه وخشوعه في دعائه؛ حيث أخفاه عن الناس، قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣]، كما أن في الجمع بين النداء الذي يقتضي الجهر والوصف بالخفاء الذي يقتضي الإسرار دلالة على أن مناجاته -عليه السلام- كانت مناجاة نابعة من أعماق قلبه.

* ولما كان حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، وكان -عليه السلام- وزوجه فاقدين لها، عبَّر في دعائه بهذا التعبير البليغ؛ فقال:

---

(١) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب: الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين: ٣/ ١٤١٨، ح(١٧٩٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٢/ ١٥٢.

(٣) الحديث: أخرجه البخاري: في صحيحه: كتاب: الدعوات، باب تكرير الدعاء: ٨/ ٨٣، ح(٦٣٩١).

(٤) هذا قول جمهور المفسرين. يراجع مثلا: التفسير الكبير: ٢١/ ٥٠٧.

وهو الأولى والأليق بمقام النبوة. وقيل غير ذلك هو ضعيف، حيث قيل: إنه أخفى دعاءه لئلا يسمعه مواليه الذين كان يخافهم، وقيل: لأنه لما كان شيخا كبيرا خاف من لوم الناس إذا عرفوا طلبه للولد وهو في تلك السن المتقدمة. (يراجع: النكت والعيون: ٣/ ٣٥٤، وفتح القدير: ٣/ ٣٧٩).

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥].

فاختار لفظ (الهبة) الذي يفيد العطاء والمنح بغير سبب[١]، ولفظ (لدن) الذي يفيد عندية الاختصاص والتمَكُّنِ[٢]، وكأن المعنى: أدعوك إلهي أن تعزل الأسباب في طلبي هذا، وأن تمنحني من فيض فضلك الواسع ابنا يلي الأَمر من بعدي، يقوم مقامي، ويحسن خلافتي، بمحض قدرتك الباهرة، من غير أسباب مني.

كما لا يخفى ما في هذا التعبير من تفخيم تلك العطية وتعظيم شأنها.

* ولقد قدَّم –عليه السلام– بين يدي دعائه أمورا خمسة، تبين تمام عجزه وضعفه وحاجته إلى إحسان ربه، واعترافه بنعمه تعالى، وثناءه عليه سبحانه، وثقته فيه أن لا يخيب رجاءه، مع فَقْدِه الأسباب.

وهو أدب عال في سؤال الله تعالى، أدَّب الله تعالى به أنبياءه عليهم السلام، وهكذا ينبغي على العبد أن يقدِّم بين يدي دعاء ربه حاجته وذله واضطراره، واعترافه بنعمه تعالى عليه، وثناءه على الله بما هو أهله، وثقته التامة في إجابة دعائه:

وأول هذه الأمور الخمسة: كونه متقدما في السن وفي غاية الضعف:

وقد دلل على ذلك بوصفين؛ كما في قوله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي: قال رب إني ضَعُفَ عظمي ورَقَّ، وخارت قواي لكبر سني، وهذه علامة ضعفه باطنا.

---

(١) يراجع: المفردات في غريب القرآن: ص: ٨٨٤، وبصائر ذوي التمييز: ٥/ ٢٨٥.

(٢) يراجع: المفردات: ص: ٧٣٩، وبصائر ذوي التمييز: ٤/ ٤٢٦.

"والوَهْنُ: الضَّعْفُ، يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا إذا ضَعُفَ، فهو واهنٌ"[(١)]، وأسند الضعف إلى العظم؛ لأن العظام عماد البدن وبها قوامه، وهي أصل بنائه، فإذا وَهَنَت تداعى البدن وتساقطت قوته، ووَحَّد "العظم" قصدا إلى الجنس المفيد لشمول الوَهْن لكل فرد من أفراد عظامه[(٢)].

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أي: وفشا الشيب وتغلغل في رأْسي، وسرى فيه كما تسرى النار في الحطب، وهذه أمارة ضعفه ظاهرا.

والاشتعال في الأصل: انتشار شعاع النار، فشبه الشيب (انتشار بياض شعر الرأس في سواده) باشتعال النار بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه، وكان الأصل: واشتعل شيب رأسي، فأسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لإفادة الشمول[(٣)].

وبهذا توسل زكريا –عليه السلام– إلى ربه تعالى بضعف حاله ظاهرا وباطنا، وبدأ بأمارة ضعف الباطن لأنها الأساس، وكان الوصف بها كافيا، لكنه أردفها بوصف ثان زيادة في توكيد ضعفه وعجزه، وتبرئه من حوله وقوته إلى حول الله تعالى وقدرته.

وثانيها: يقينه في إجابة الله تعالى له:

قال تعالى على لسانه –عليه السلام–: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤﴾ [مريم: ٤]، أي: ولم أكن بدعائي إياك رب خائبًا في وقت من أوقات عمري الطويل، ولا محروما من الإجابة، بل لم تزل بي حفيا، ولدعائي مجيبا،

---

(١) لسان العرب: ١٣/ ٤٥٣، مادة "وهن".

(٢) الكشاف: ٣/ ٤، والتفسير الكبير: ٢١/ ٥٠٨، وغيرهما.

(٣) الكشاف: ٣/ ٤، والتفسير الكبير: ٢١/ ٥٠٨، وروح المعاني: ٨/ ٣٨٠، وغيرها بتلخيص.

وألطافك تتوالى علي، وإحسانك يصل إليّ، "فأجرني هذه المرة أيضاً على عوائد فضلك، فإن المحسن يربي أول إحسانه بآخره، وإن كان ما أدعو به في غاية البعد في العادة، لكنك فعلت مع أبي إبراهيم -عليه السلام- مثله؛ فهو دعاء شكر وتوسُّلٍ"[١]. توسَّل -عليه السلام- إلى ربه تعالى بإنعامه عليه باستجابة كل دعائه فيما سلف، وكأنه يقول: وقد عودتني يا ربي إنعامك علي بالقبول والإجابة، ولا يليق بجلال قدرتك وكمال كرمك أن تردني.

وبهذا جمع -عليه السلام- في دعائه بين التوسل إلى الله تعالى ببيان حاله من الضعف والعجز، والتوسل بإنعامه تعالى عليه وكرمه وتفضله.

وثالثها: خوفه على الدين من الموالي من بعده:

قال تعالى على لسانه: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مريم: ٥]، وهو تعليل للطلب يظهر أنه إنما أراد الولد لحماية الدين من الموالي من بعده، لا لمجرد التقوي به أو التفاخر كما هي عادة معظم البشر، وهكذا فَعَل موسى حين طلب من الله تعالى التقوي بأخيه هارون عليهما السلام.

أي: وإني خشيت على دين الله فِعْلَ أو جَوْرَ أقاربي الذين يلون الأمر من بعد موتى، ألا يحسنوا القيام على أمر الدين، والحفاظ على شريعتك؛ فهب لي ولدا يقوم بأمر الدين من بعدي.

وجاء قوله: " ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ بصيغة الماضي والمراد منه المستقبل، للإخبار بتقادم عهده في ذلك الخوف، فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى، ومنه قولنا: "قد خفت أن يكون كذا"، أي: أنا خائف، لا يريد أنه قد زال الخوف عنه، وقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٢/ ١٦٨. بتصرف.

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]"[١].

وإنما خافهم لأنهم كانوا من شرار بني إسرائيل، وربما عرف ببعض الأمارات استمرارهم على عادتهم في الفساد والشر، وكانت امرأته عاقرًا لا تحمل ولا تلد، من شبابها إلى شيبها، وهذا مما يزيد أقاربه تلهفا على خلافته وإن لم يحسنوها[٢].

ورابعها: كون امرأته عاقرا:

قال الله تعالى على لسانه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: من الآية٥]، أي: وكانت امرأتي عاقرا ولا تزال، والعاقر: هي المرأة التي لا تَحمل، والعَقْر والعُقْر في اللغة: هو العُقْم[٣].

وخامسها: كون المطلوب بدعائه سببا للمنفعة في الدين:

قال تعالى على لسانه: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم: ٦]، وهو تعليل آخر يؤكد حرصه -عليه السلام- على أن يُستكمل دين الله تعالى، وأن تظل دعوته ترفرف على البشرية كلها.

فقد وصف -عليه السلام- وليَّه الذي استوهبه من ربه فقال: ﴿يَرِثُنِي﴾، أي: يرثني في العلم والنبوة[٤]، وذلك لِما عُلِم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين، وأنهم لم يُوَرِّثُوا آلهم دينارًا ولا درهمًا، فقد كانوا أزهد الناس في الدنيا، وإنما وَرَّثُوا العلم والنبوة؛ قال صلى الله عليه

---

(١) التفسير الكبير: ٢١/ ٥٠٩، بتصرف.

(٢) ملخص من الكشاف: ٣/ ٤، والتفسير الكبير: ٢١/ ٥٠٩، وغيرهما.

(٣) لسان العرب: ٤/ ٥٩١، مادة "عقر".

(٤) وهو قول قتادة والحسن، وهو أولى الأقوال، يراجع تفصيل الأقوال في: جامع البيان للطبري: ١٨/ ١٤٥- ١٤٧، والنكت والعيون للماوردي: ٣/ ٣٥٥، ٣٥٦.

وسلم: (إنا مَعْشَرَ الأنبياء لا نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَئُونَةِ عَامِلِي، وَنَفَقَةِ نِسَائِي، صَدَقَةٌ)[١].

وأما قوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: فهو توكيد لهذا الميراث النبوي الذي طلبه لوليِّه، أي: ويرث النبوة كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب، فإن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، وكانت النبوة في بيت يعقوب وآله.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾: والأنبياء كلهم مرضيون، ولهذا فالمراد: واجعله رب رضيا من الأنبياء، مفضلا في جملتهم فائقا في كثير من أمورهم، فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين؛ قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهذا غاية ما يكون به المرء رضيا. وقيل المراد: وثبته يا رب على ذلك؛ كما قال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وكانا دون شك مسلميْن، فكان المراد: ثبتنا على هذا[٢].

* أنه -عليه السلام- لشدة تواضعه وأدبه وحيائه في دعاء ربه عز وجل تدرج في طلبه الولد؛ يدلنا على ذلك قول الله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء:

---

(١) الحديث: أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب الفرائض، باب ذكر مواريث الأنبياء: ٦/ ٩٨، ح(٦٢٧٥)، وأحمد في مسنده: ١٦/ ٤٧، ح(٩٩٧٢) وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ملخص من التفسير الكبير: ٢١/ ٥١١.

٨٩]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥، ٦].

فأولا: دعا ربه تعالى أن يهبه من لدنه ذرية طيبة، وهو دعاء بالذرية مجمل؛ لأن لفظ الذرية يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث[١]، وثانيا: نادى ربه متذللا أن لا يتركه وحيدا دون عقب يرثه ويقوم مقامه بأمر الدين، وفيه زيادة بيان عن سابقه، وثالثا: دعا ربه تعالى دعاء أكثر تفصيلا من سابقه، وهو: أن يهبه من لدنه وليا يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله رضيا، وفي ذلك كله تمام التواضع والأدب والحياء في سؤال الله تعالى.

* أنه -عليه السلام- ما حكى حال امرأته من العقم ليذكرها بما تكره، وحاشاه من ذلك[٢]، وإنما ليُعلن وهو في مقام الدعاء تمام عجزه وضعفه واضطراره من كل ناحية، وذلك أدب عال في الدعاء.

* وقد ختم -عليه السلام- دعاءه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله؛ وفي ذلك دليل على أدبه في مناجاة ربه وتسليم الأمور إليه سبحانه.

- حيث قال في ختام دعائه كما ورد في سورة الأنبياء: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾[٣] [الأنبياء: ٨٩]، قال المفسرون: رد الأمر إلى الله؛ حيث أثنى على الله تعالى بأنه الباقي بعد فناء خلقه، والمعنى: وأنت خير من يبقى

---

(١) يراجع: لسان العرب: ١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦، مادة، (ذرا) والمفردات: ص٣٢٧.

(٢) لم يذكر الخليل إبراهيم عليه السلام عقم امرأته أو يأسها في تعجبه من ولادة إسحاق عليه السلام، كما سبق بيانه. وهذا مقام وهذا مقام.

(٣) الوارث من أسماء الله الحسنى هو: الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك، وذلك هو الله سبحانه، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء ومصيره. يراجع: شرح أسماء الله الحسنى للغزالي: ص١٤٨.

بعد كل من يموت، فأنت حسبي إن لم ترزقني ولدا يرثني، فإني أعلم أنك لا تضيع دينك، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ[١].

- وقال في ختام دعائه كما ورد في سورة آل عمران: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨]، أي: إنك مجيب الدعاء، لا يخفى عليك سِرُّ دعائي وخَفِيُّ رجائي؛ مهما أكننته في نفسي أو أخفيته في قلبي، وفي هذا دلالة على قوة رجائه ويقينه في إجابة دعائه.

ثانيا: إجابة عاجلة وبشرى عجيبة:

بعد أن رفع سيدنا زكريا -عليه السلام- حاجته لله تعالى ضارعا متذللا، مبديا ضعفه وعجزه، عازما مسألته، معظِّما رغبته، متجردا من كل الأسباب، واثقا من إجابة الله تعالى له، ملتمسا في ذلك أنسب الطرق وأشرف الألفاظ - أجابه الله تعالى ووهبه ما كان يتمنى ويرجو وزيادة؛ رغم وجود الموانع الحسية لديه ولدى زوجه في حكم البشر، فما من أحد يتصور في حكم العرف والعادة الإنجاب من شيخ كبير هرم أصابه الضعف من كل ناحية، وزوجةٍ كانت عقيما في شبابها، ثم تضاعف عليها العجز حين صارت كبيرة آيسة، لكنَّ قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، ولله تعالى في قَدَرِه شؤون!!.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩].

---

(١) يراجع: التفسير البسيط للواحدي: ١٥/ ١٧٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٣٢٥، وفتح القدير للشوكاني: ٣/ ٥٠٢، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٢/ ٤٦٩، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٨٣، والتحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٥، وغيرها.

وقـال تعـالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم: ٧].

وقـال تعـالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وبتدبر تلك الآيات الكريمة نرى سعة عطاء الله تعالى لعبده المضطر زكريا -عليه السلام-، في تلك الإجابة العجيبة، وكيف خرق الله تعالى له الأسباب، ووهبه فوق ما كان يرجو وزيادة، فضلا منه وكرما.

١- فقد استجاب الله تعالى دعاءه -عليه السلام- وبشره عاجلا غير آجل[١]؛ تكريما له وتشريفا؛ يدل عليه: التعبير بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٢- وزاده الله تعالى تكريما وتشريفا بأن بشَّره تلك البشرى العظيمة العجيبة عن طريق جمع من الملائكة؛ قال تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، هذا هو اختيار المحققين من المفسرين[٢]؛ قال الرازي: "ولا شك أن هذا في التشريف أعظم"[١]؛ لأن

(١) وليس كما روي أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة. ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ١/ ٤٢٨.

(٢) يراجع: جامع البيان للطبري: ٦/ ٣٦٣، والتفسير الكبير للرازي: ٨/ ٢١٠، وفتح القدير: ١/ ٣٨٦، وغيرها.

صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة، فقد جرت العادة في أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع من الملائكة لا واحد، كما أن فيه تطمينا وتثبيتا له عليه السلام.

٣- ثم زاده الله تعالى تعظيما لا يعدله تعظيم، فذكر بشراه في موضعي مريم والأنبياء، منه تعالى مباشرة، دون ذكر الملائكة؛ قال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولعل السر في ذلك: مبالغة زكريا -عليه السلام- في تضرعه وشدة اضطراره وأدبه في مناجاة ربه، فشرفه الله تعالى فحكى خطابه بالبشرى منه جل جلاله مباشرة؛ زيادة في تشريفه وتعظيمه، وبيانا لمنزلته لديه تعالى، وإن كان الذي تولى ذلك هم الملائكة، والله أعلم.

٤- وقد تضمن قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: ٣٩] ثناءً عليه بمداومة الصلاة ولزوم المحراب، وفي هذا دليل "على أن المرادات إنما تطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء

وإن تأول بعض العلماء لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بجبريل -عليه السلام-، لكنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا لعلة أو ضرورة،

وقيل: إن الذي ناداه هو جبريل وحده، ومن الجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، كما يقال في الكلام: خرج فلان على بغال البريد، وإنما ركب بغلا واحدا، وركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة، قال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيسا جاز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه، فلما كان جبريل رئيس الملائكة، وقلما يبعث إلا ومعه جمع صح ذلك. يراجع: جامع البيان: ٦/ ٣٦٥.

(١) التفسير الكبير: ٨/ ٢١٠.

الحاجات، قيل: ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب"[(١)].

٥- ومن تمام نعمة الله تعالى ورحمته بسيدنا زكريا أن أصلح له زوجه، ووهبه الولد منها لا من غيرها، لأن في إصلاحها إسعاد لقلبه وإيناس لنفسه، فهي شريكة صبره ورفيقة دربه، وهو الذي طالما بث شكواه وتذلل لربه سبحانه بحالها، فأكرمه الله تعالى بإصلاحها، ليكون منها الولد لا من غيرها، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٦- ثم هو تكريم وتشريف لها أيضا لتفوز بتلك الكرامة معه؛ قال القشيري: "لتكون الكرامة لهم جميعا بالولد، ولئلا يستبدّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاة لحقّ صحبتها.. وهذه سنّة الله في باب إكرام أوليائه"[(٢)].

فهي الصابرة المحتسبة، التي عانت معه مرارة المنع ولوعة الحرمان، حتى بلغت سن اليأس عقيما محرومة من زينة الحياة الدنيا!!؛ لهذا أكرمها الله تعالى وخرق العادة فيها تشريفا لها وتكريما.

٧- ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾: وأزلنا عنها المانع من الإنجاب، وجعلناها ولودا، هذا هو اللائق بالقصة، وهو قول المحققين[(٣)]، ولا

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي: ١/ ٢٥٣.

(٢) لطائف الإشارات: ٢/ ٥٢١.

(٣) يراجع: جامع البيان للطبري: ١٨/ ٥٢١، والكشف والبيان للثعلبي: ٦/ ٣٠٥، وتأويلات أهل السنة: ٧/ ٣٧٢، والمحرر الوجيز: ٤/ ٩٨، والكشاف: ٣/ ١٣٣، والتفسير الكبير: ٢٢/ ١٨٢، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي: ٢/ ٣٤٨، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٨٣، وفتح القدير: ٣/ ٥٠٢.

عبرة بما روي غير ذلك[١]، ومن تتمة ذلك القول ولوازمه ما قيل: إن الله تعالى أصلح هيئتها ومنظرها، فيكون المعنى: "وجعلناها بحيث يرغب فيها زوجها، ذات هيئة ومنظر؛ حيث كانت قد بلغت سنا كبيرة، والعرف في النساء أنهن إذا بلغن تلك السن كُنَّ من القواعد اللاتي لا يرغب فيهن أحد، فأخبر تعالى أنه أصلحها وصيرها بحيث يرغب فيها زوجها، ذات هيئة ومنظر"[٢].

٨- ولما كان الولد هو مطلوبه الأعظم قدَّمه الله تعالى في الذكر على إصلاح زوجه، مع أن إصلاحها مقدم زمانا على هبة الولد، وذلك تعجيلا لمسرته وتطمينه وتثبيت قلبه؛ قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، قال الرازي: "الواو لا تفيد الترتيب؛ لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ"[٣].

٩- ومن عظيم إكرام الله تعالى له أن وهبه الغلام الذي طلب، وحقق له فيه ما كان يتمنى وما لم يخطر بباله؛ فمنحه الله تعالى من المنازل والأوصاف ما يجل عن الوصف، لأنه تعالى هو الملك الكريم الجواد الذي يعطي عباده بغير حساب.

---

(١)ذُكِر في بعض كتب التفسير مثل: [جامع البيان للطبري: ١٨/ ٥٢١، والنكت والعيون: ٣/ ٤٦٨، والكشاف: ٣/ ١٣٣ وزاد المسير: ٣/ ٢١١] قولا آخر وهو: أن الله تعالى أصلح لسانها وخلقها حيث كان في لسانها بذاء وفي خلقها سوءا. وهو قول لا دليل عليه، ثم هو على خلاف ما ذكرهم الله تعالى ووصفهم، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. يراجع: تأويلات أهل السنة: ٧/ ٣٧٢، والمحرر الوجيز: ٤/ ٩٨.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٧/ ٣٧٢، بتصرف واختصار.

(٣) التفسير الكبير: ٢٢/ ١٨٢.

(أ) فسماه الله تعالى بذاته العلية قبل أن تحمل به أمه باسم لم يسم به أحد من العالمين من قبله[١]:

قال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم: ٧]. "فإن قيل: ما وجه المِدْحَة باسم لم يُسمَّ به أحد قبله، ونرى كثيراً من الأسماء لم يُسبَق إليها؟ فالجواب: أن وجه الفضل والشرف والتكريم أن الله تعالى هو الذي تولَّى تسميته بذاته العلية باسم لم يسم به أحد من قبله، ولم يَكِل ذلك إلى أبويه"[٢]، وفي ذلك أعظم الفضل والشرف والتكريم.

(ب) ومنحه تعالى أربعة منازل عظيمة جليلة:

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

أولها: كونه مصدقا بكلمة من الله؛ أي: مصدقا بكتاب من الله، وهو التوراة، وسمي الكتاب كلمة كما تسمي العرب القصيدة كلمة، أو: مصدقا بعيسى عليه السلام، وسمي كلمة؛ لأنه خلق بكلمة من الله تعالى لا بسبب إنسان آخر كعرف البشر[٣]. وعلى المعنيين تكون هذه بشارة ثانية لزكريا –

(١) وهو قول قتادة وابن أسلم والسدي، وجمهور المفسرين، يراجع: جامع البيان: ١٨/ ١٤٨، وزاد المسير لابن الجوزي: ٣/ ١٢٠. ولا عبرة بما قيل من أن معناه: لم نجعل له نظيرا يساويه في السمو والرفعة؛ فإنه غير صواب؛ لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى عليهم السلام، يراجع: المحرر الوجيز: ٤/٦، والجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٨٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ٣/ ١٢٠، بتصرف وزيادة..

(٣) يراجع: جامع البيان: ٦/ ٣٧١، ٣٧٢، ومعاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٠٦، والبسيط للواحدي: ٥/ ٢٢٥، والكشاف: ١/ ٣٦٠، ومعالم التنزيل: ١/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز: ١/ ٤٢٩، والتفسير الكبير: ٨/ ٢١١، والجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٧٦،

عليه السلام- بأن ولده سيكون نبيا؛ داعيا بكتاب من سبقه من الأنبياء، وأنه سيكون مصدقا بعيسى ابن مريم عليه السلام.

ثانيها: كونه سيدا: أي: كريما على ربه، تقيا، حليما، فقيها، عالما، شريفا، إماما في الخير(١). ويجمع ذلك: كونه فائقا على قومه في الفضل والشرف.

ثالثها: كونه حصورا: أي: ممتنعًا من جماع النساء، حصراً لنفسه، تقىً وجلدًا، وعفةً وزهدًا، طاعةً لله تعالى، والحصر: هو المنع والحبس، أي: منعا لها من الشهوات؛ من قول القائل: حَصِرَ من كذا يَحْصِر، إذا امتنع منه. هذا قول المحققين(٢).

رابعها: كونه نبيا من الصالحين: وهذا تمام العطاء، ومبلغ العز والشرف؛ لأنها بشارة صريحة بنبوته بعد البشارة الأولى بولادته، وهي أعلى منها، كقوله تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

والمعنى: ونبيا ناشئاً من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة الصالحين، والمراد بالصلاح في حق الأنبياء والمرسلين أقصى مراتبه وأعلى منازله، ومنه قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي

والبحر المحيط: ٣/ ١٣١، وأنوار التنزيل: ٢/ ١٥، وفتح القدير: ١/ ٣٨٧، وغيرها من كتب التفسير.

(١) هذه أقوال مأثورة عن السلف الصالح، يراجع: جامع البيان للطبري: ٦/ ٣٧٤- ٣٧٦، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٢/ ٦٤٢، ٦٤٣، والنكت والعيون للماوردي: ٢/ ٣٦١، ٣٦٢، وزاد المسير: ١/ ٢٧٩، وغيرها من كتب التفسير بالمأثور.

(٢) يراجع: مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٧٢، ٧٣، وجامع البيان: ٦/ ٣٧٦، والكشاف: ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز: ١/ ٤٣٠، والتفسير الكبير: ٨/ ٢١٢.

﴿ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢]، وعليه دعاءُ سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩] (١).

هذا فضل الله تعالى، وهذا عطاؤه بغير حساب، لقد وهب الله تعالى عبده زكريا ما كان يرجو وما لم يخطر بباله؛ رغم فقدانه أسباب الإنجاب في عرف البشر، ولله تعالى في قدره شؤون!!.

ثالثا: عجب ودهشة وذهول:

مع أن سيدنا زكريا -عليه السلام- هو من كان يدعو ويتذلل ويلحُّ في الدعاء، متيقنا فوات الأوان، وفقدان الأسباب، إلا أنه بطبيعة البشر وبمقاييسهم قد ذهب لُبَّه حين أتته البشرى، وأدهشه ذلك العطاء الإلهي الذي فاق عقول البشر، وخرج عن العادة التي سنها الله تعالى في هذا الكون، فوقف متعجبا مذهولا من عِظَم ما بُشِّر به، فَجَرَتْ على لسانه عباراتُ التعجب والاستبعاد بحكم العرف والعادة البشرية التي لا تقوى على استقبال فيوضات الحق وعطاياه الإلهية، لا شكا ولا إنكارا.

قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: ٨].

* ويُلاحَظ أن القرآن الكريم لم يذكر إلا تعجبه ودهشته هو فقط، ولم يذكر شيئا عن تعجب امرأته رغم أن المانع من قِبَلها كان أعظم، والاستبعاد من حيث العادة كان أبلغ، كما حدث مع إبراهيم -عليه السلام- وزوجه.

ولعل السر في ذلك: أن بشرى زكريا -عليه السلام- أتته وهو قائم يصلى في محرابه بعيدا عن أهله، فلم تطلع زوجه على شيء منها أثناء إلقائها

---

(١) يراجع: الكشاف: ١/ ٣٦٠، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٢.

عليه، فلم يذكر القرآن الكريم شيئا عن تعجبها لغيابها عن المشهد، وإن كانت العادة قاضية بضرورة تعجبها، وأما بشرى الخليل -عليه السلام- فقد أتته وهو في بيته بين أهله، عن طريق ملائكة جاءوه أضيافا في صورة رجال، فحصل لامرأته رؤياهم والاستماع إلى حديثهم، فكان ما ذكره القرآن الكريم من تعجبها واستبعادها.

* ولما كانت البشرى في غاية العجب التفت زكريا -عليه السلام- ووجَّه خطابه لله تعالى دون الملائكة[1] مع أنهم هم المباشرون لخطابه تبليغا عن الله تعالى؛ فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؛ وذلك حبا في لذة المناجاة، ومبالغةً في التضرع إلى الله.

ولم يكن قوله هذا للشك أو الإنكار، وإنما كان على سبيل التعجب العادي من حيث العادة والعرف، حيث لم تجر العادة بحصول الإنجاب من شيخ كبير وامرأة عاقر، وهذا قول جمهور المفسرين.

* وقد ذكر عليه السلام في تعجبه سببين: الأول: بلوغه الكبر، والثاني: كون امرأته عاقرا.

والعجيب أنه كان قد فصَّل ذلك في تضرعه وتذلُّلِهِ لله تعالى، فلماذا إذًا تعجب واندهش وطار لبُّه لمَّا بُشِّر؟ ألم يكن واثقا من إجابة الله تعالى له؟ أقول: بلى، لقد كان واثقا تمام الثقة، متيقنا تمام اليقين من قدرة الله تعالى

---

(١)زعم بعض المفسرين -مخالفة لظاهر الآية- أن زكريًّا خاطب بهذا جبريل عليه السلام، فقال: (رَبِّ)؛ أي: يا سيِّدي، ونسبوه إلى الكلبي وأكثر المفسرين، وهو رأي بيِّن الضعف، دعاهم إليه تأويلهم لفظ الملائكة بجبريل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾. يراجع: البسيط للواحدي: ٥/ ٢٣٢، ٢٣٣، وبحر العلوم للسمرقندي: ١/ ٢١١، والكشف والبيان للثعلبي: ٣/ ٦٥، ومعالم التنزيل للبغوي: ١/ ٤٧٣، والجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٧٩.

وإجابته له، ولكنها فرحة العطاء الإلهي بما لا يتحمله أحد، وذهول الموقف مما هو خارج عن مقاييس البشر، إنه عطاء فوق الأسباب، يهتز له كيان المرء لا محالة، وإن كان نبيا، فلا جرم صدرت عنه عبارات التعجب استعظاما لكمال قدرة الله تعالى، لخرقها ما استقر في عرف البشر وعادتهم من السنة التي سنَّها الله فيهم أن الشيخ الهرم والمرأة العقيم الآيسة لا يولد لهما.

والمراد بقوله تعالى:﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: وقد أدركني كِبَرُ السِّنِّ وأثَّر فيَّ فأضعفني وأفقدني قدرتي[١]. وبقوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾: وقد بلغتُ النهاية في الكِبَرِ واليُبْسِ والجَفَافِ، يقال: عَتَا الشيخُ يَعْتُو عِتِيًّا: كَبِرَ وَوَلَّى، وبلغ حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها[٢].

روي عن ابن عباس: أن زكريا كان يوم بشر بالولد ابن مائة وعشرين سنة، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين[٣].

والعاقر: هي المرأة التي لا تَحمل، والعَقْر والعُقْر في اللغة: هو العُقْم[٤].

* وقد جاء التعبير عن السببين مختلفا في الموضعين، وبتقديم وتأخير، ففي "آل عمران" قدَّم -عليه السلام- بلوغه الكِبَر على عُقْرِ امرأته، وفي "مريم" قدَّم عُقْرَ امرأته على بلوغه الكِبَر.

ولعل السر في ذلك -والله أعلم-[١]: أن السبب الذي كان يَمْثُلُ في خاطره أكثر كان يَعْمَدُ إلى تقديمه ويؤخر ما عداه.

---

(١) يراجع: الكشاف: ١/ ٣٦٠، والتفسير الكبير: ٨/ ٢١٤، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٣.

(٢) يراجع: مجاز القرآن لأبي عبيدة: ص ٢/٢، وغريب القرآن لابن قتيبة: ص٢٧٢، والمفردات في غريب القرآن: ص٥٤٦، وبصائر ذوي التمييز: ٤/ ١٩.

(٣) يراجع: معالم التنزيل: ١/ ٤٣٧، وزاد المسير: ١/ ٢٨٠، ٢٨١.

(٤) لسان العرب: ٤/ ٥٩١، مادة "عقر".

ففي موضع "آل عمران" أفاد التعبير نفسه أن الكبَر كان هو السبب الأظهر عنده، حيث أسند إليه البلوغ، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ فكأن الكِبَر كان يطارده حتى أدركه، بخلاف موضع "مريم"، فإن الكبر لم يكن السبب الأظهر في خاطره، فلهذا لم يسند إليه البلوغ وجاء مسندا إلى ضميره هو: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [٢].

وفي موضع "مريم" أفاد التعبير نفسه أن عُقْر امرأته كان هو السبب الأظهر عنده، حيث جاءت العبارة الدالة عليه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ بزيادة "كان"، التي تفيد ثبوتَ النسبة في الماضي مع الاستمرار هنا، بخلاف موضع "آل عمران" فإن العُقر لم يكن السبب الأظهر في خاطره، حيث جاءت العبارة الدالة عليه: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ من مبتدأ وخبر مجردين[٣].

ويمكن أن يقال أيضا: إن التقديم والتأخير واختلاف الأسلوب ههنا وهناك له دلالة نفسية عظيمة؛ إذ يدل ذلك على شدة معاناته –عليه السلام– ومدى حيرته وخوفه على الدين، وحرصه الشديد على تأمين أمر الدعوة من بعده، وقد جاوز عمره المدى، وفات أوان الإنجاب، ولهذا كانت تتجاذب فكره وعقله

---

(١) قيل: مراعاة للفواصل لتناسب رؤوس الآي في سورة مريم، يراجع: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ١/ ٨٢، وأسرار التكرار في القرآن للكرماني: ص: ٨٩، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني: ص١٢٧، ١٢٨، وبصائر ذوي التمييز: ١/ ١٦٢.

(٢) ويمكن أن يقال: أن التعبيرين متساويان؛ حيث أسند البلوغ إلى الكبر في الموضع الأول، فكأن الكبر يطارده حتى أدركه، وزاد في بيان كبَره حين أفصح عن ضعف حاله بذكر العِتيّ في الموضع الثاني، فتساوى هذا مع ذاك في درجة التأثير والمثول في خاطره.

(٣) مستفاد من: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/ ١٧٧.

أسباب المنع من الإنجاب بحكم العادة والعرف، فكان مرة يقدم هذا، ومرة يقدم ذاك.

رابعا: تطمين وتثبيت:

ولما بلغ العجب والذهول مبلغهما من زكريا -عليه السلام- وقال ما قال مبديا شدة تعجبه بحكم العرف والعادة، واستعظاما لكمال قدرة الله تعالى، واعتداداً بنعمته عليه، وكان ذلك منطويا على رغبته الشديدة في الاطمئنان والتثبت؛ لا جرم طمأنه الله تعالى وربط على قلبه، وثبت فؤاده، فقال عز من قائل: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقال: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم: ٩].

وقد تضمنت تلك العبارات الكريمة وجوها كثيرة من التثبيت والتطمين؛ حيث كانت البشرى فوق مقاييس البشر.

* فابتدئ بقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ في الموضعين، أي: قال الله تعالى(١)، أو قال الملَك المبلِّغ للبشارة(٢)، والتعبير يتضمن تطمينا من الله تعالى له على كلا القولين؛ لأن المعنى: الأمر كذلك، أي ما بُشِّرْتَ به، والمراد: اطمئن واثبت ولا تتعجب، على أن (كذلك) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والكافُ مُقحَمَةٌ

---

(١) اختاره بعض المفسرين رعاية للسياق حتى لا يختل النظم، يراجع: جامع البيان للطبري: ١٨/ ١٥١، ونظم الدرر: ١٢/ ١٧٦، وروح المعاني: ٨/ ٣٨٧، وفتح القدير: ٣/ ٣٨٢، والتحرير والتنوير: ١٦/ ٧١.

(٢) اختاره بعض المفسرين، يراجع: والمحرر الوجيز: ٤/ ٦، وإرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ١٩٠، والدر المصون: ٧/ ٥٧٢.

لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة[١]، وإذا اعتبرنا القائل هو الله تعالى كان في التعبير مزيد من التطمين والتعظيم لزكريا عليه السلام.

* ومن تطمينه أيضا: مجيء لفظ الجلالة (الله) مقدما على خبره الفعلي (يفعل) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ وذلك لإفادة القصر، ليعلم زكريا -عليه السلام- أن ما تعجب من حدوثه لا يخرج عن كونه فعلا لله تعالى خاصا به، ومن ثم لا يستغرب أن يكون الفعل خارجا عن مقاييس البشر؛ لأن الله يفعل ما يشاء كيف يشاء متى شاء، وفي ذلك تطمين وتثبيت له وحث له على التسليم المطلق لأمر الله تعالى مهما كان غريبا.

* وكذلك تضمن قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، مزيدا من التطمين والتثبيت؛ حيث لم يقتصر الله تعالى في جوابه على قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ بل قال: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾[٢]، أي: قال ربك الذي تولاك ورعاك، أي: حَكَم وقضى وقرَّر، وفي ذلك دلالة على تحقق الوعد، لإزالة تعجبه واستبعاده، وحثه على التسليم لأمر الله تعالى.

* وكذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ إذ المعنى: قال ربك: هو أي: إيجاد الولد منك مع عِتِيِّك، ومن زوجك مع عُقْرِها، عليّ سهل يسير. أراد

---

(١) يراجع: معاني القرآن للزجاج: ٣/ ٣٢١، والبسيط للواحدي: ١٤/ ٢٠٢، والكشاف: ٣/ ٦، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٣، وغيرها من كتب التفسير.

وليست الكاف ههنا للتشبيه، كما مر بيانه عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: ٣٠]، في الحديث عن ولادة إسماعيل عليه السلام.

(٢) مستفاد من روح المعاني: ٨/ ٣٨٧.

الله تعالى طمأنته وإزالة تعجبه بهذا القول باعتبار مفاهيم البشر ومقاييسهم، مع أن كل شيء عليه سبحانه سهل ويسير.

* ومن تطمينه وتثبيته أيضا: تقديم المعمول ﴿عَلَيَّ﴾ على عامله ﴿هَيِّنٌ﴾: لإفادة القصر؛ بأن هذا الأمر المستغرب المخالف لمقاييس البشر مهما بلغ من الغرابة فإنه هين على الله تعالى وحده دون غيره، وفائدة ذلك تطمين زكريا -عليه السلام- بأنَّ ما رآه مستحيلا في مقاييس البشر فتعجب منه هو بالنسبة إلى الله على وجه الخصوص هيِّنٌ.

* ثم زاده الله تعالى تطمينا بأن وجَّه نظره إلى نفسه فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾: أي وقد خلقتك أنت من قبلُ ولم تك شيئًا مذكورا، حيث خلقتك من تراب في ضمن خلق أبيك آدم، أو خلقتك من نطفة لم تكن شيئًا مذكورًا، فمن قدر على خلقك مما يشبه العدم، فهو قادر على تحقيق ما بشرَّك به.

ولما كان -عليه السلام- شديد الشوق واللهفة لما يطمئنه ويثبته حِيال تلك البشرى العجيبة خاطبه الله تعالى بلفظ موجز، فحذف النون من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ إسراعا في تطمينه.

** ولما تحقق اطمئنان سيدنا زكريا -عليه السلام- وزال عنه التعجب، وهدأت نفسه، وثبت فؤاده، وأيقن أن الله تعالى خارق له العادة، وواهبه غلاما في حالة مستحيلة في عرف البشر؛ عندئذ تشوفت نفسه واشتاق قلبه إلى شكر الله تعالى على تلك النعمة العظيمة؛ فطلب منه سبحانه علامة تدل على حمل امرأته بالغلام، فقال ما حكاه القرآن عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١، ومريم: ١٠].

قال القشيري: "أراد علامة على حمل زوجه بالولد، ولم يرد علامة يستدل بها على صدق ما بُشِّر به"[١]. أي: رب اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به.

وقد أراد زكريا –عليه السلام– أن يُطلعه الله تعالى على تلك العلامة من أول الحمل؛ ليتلقّى تلك النعمةَ الجليلة من أول حصولِها بالشكر، ولا يؤخِّرَه إلى أن يظهر ظهوراً معتادا[٢].

فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، وبقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: ١٠].

أي: قال الله تعالى له: علامتك أن تُمْنَع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح سويّ الخَلْق، ما بك خَرَسٌ ولا بَكَمٌ[٣]. وإنما جُعلت آيتُه ذلك لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحق تلك النعمة الجسيمة، كأنه قيل: آيةُ حصولِ المطلوب ووصول النعمة أن تحبِسَ لسانك إلا عن شكرها[٤]. ومعنى ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: أي: إلا إشارةً بيد أو رأس أو نحوِهما[٥].

---

(١) يراجع: لطائف الإشارات: ٢/ ٤٢١، بتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٤. بتصرف.

(٣) الكشاف ٣/ ٧. وهذا رأي الجمهور.

(٤) الكشاف: ١/ ٣٦٠، ٣٦١، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٤، وفتح القدير للشوكاني: ١/ ٣٨٨.

وغيرها.

(٥) المصادر السابقة: نفس الموضع.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ أي: بلسانك وقلبك في أيام الحبسة ذِكراً كثيراً أو زماناً كثيراً، شكراً لحصول التفضُّل والإنعام كما يؤذن به التعرّضُ لعنوان الربوبية. ﴿وَسَبِّحْ ﴾ أي: وسبحه تعالى، أو افعل التسبيحَ ﴿بِٱلْعَشِيِّ ﴾ أي من الزوال إلى الغروب، وقيل: من العصر إلى ذهاب صدر الليل، ﴿ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ من طلوع الفجرِ إلى الضحى(١).

<u>هذا، ومن الدروس والعظات إضافة لما ذكر هنا وفي الموضع السابق:</u>

- أن الدعاء سلاح المؤمن الذي لا يجوز له تركه أبدا؛ فلا يجوز للمؤمن أن ينقطع رجاؤه وحُسن ظنه في الله تعالى مهما فَقَدَ الأسباب.

- أن قدر الله تعالى الذي سبق به علمه سر من أسراره في خلقه، لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ لأجل هذا وجب التسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

- أن فضل الله تعالى واسع، لا يَحُدُّه حَدٌ ولا يَعُدُّه عَدٌ، وأنه تعالى المتفضل أولا والمتفضل آخرا، وأنه عز وجل يعطي سائليه أكثر مما سألوا وأعظم مما طلبوا.

- أن التعجب العادي من طلاقة قدرة الله تعالى على خرق العادات، وإيجاد الأمور على غير ما تَعَوَّد البشر عليه، لا يُعَد شكًّا أو إنكارًا، وإنما هو جارٍ على سنة الله تعالى أيضا، ومؤيَّد بما وقع من أنبياء الله تعالى، وعباده الصالحين.

(١) الكشاف: ١/ ٣٦١، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٤، وفتح القدير للشوكاني: ١/ ٣٨٨. وغيرها.

- أن الله تعالى لا يعطي سائليه على قدرهم، وإنما يعطيهم على قدره سبحانه، فيمنحهم ما طلبوا وزيادة، وهذا من جزيل فضل الله تعالى وعميم كرمه، وقد رأينا ذلك في القصتين؛ قصة إنجاب إسحاق، وقصة إنجاب يحيى عليهما السلام، بما يغني عن إعادته هنا.

*****

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، وبنور هديه تتبدد الظلمات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رفيع الدرجات، وعلى آله وصحبه أنجم الهدايات، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد،،

فقد انتهيت بحمد الله تعالى وتوفيقه من هذا البحث: (بين مقاييس البشر وسَبْقِ القدر، لطائف وهدايات، دراسة قرآنية) وتوصلت إلى جملة من النتائج والتوصيات.

أما النتائج فمن أهمها:

أولا: أن القَدَر سر الله تعالى في خلقه، لم يُطْلِع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا. لأجل هذا وجب التسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

ثانيا: أن سَبْق القَدَر: هو سَبْقُ علمِ الله تعالى بمقادير الأشياء وكتابتها في علمه على صفات، وهيئات، وأوقات، وأحوال، ..... الخ، مخصوصة، وإيجاده عز وجل لها على حسب ما قدَّره سبحانه في سابق علمه.

ثالثا: أن مقاييس البشر هي: تقديراتهم المبنية على القواعد العامة، والعادات المطردة، القائمة على السنن الكونية، والتي تعارفوا عليها حتى صارت معلومة لديهم بالضرورة، يعرفها العامة والخاصة، من غير افتقار إلى نظر واستدلال، ولا يسع عاقل إنكارها؛ ككون النار محرقة، والبحر مغرقا.

رابعا: أن البشر –مؤمنهم وكافرهم– يقيسون الأمور بما تعارفوا عليه من سنن الله في كونه، وبما صار معلوما لديهم ضرورةً، وهي مقاييس وتقديرات لا تخرج عن حيز المحسوس لهم؛ لأن علمهم قاصر وإدراكهم محدود.

خامسا: تبين من خلال هذا البحث ما كان من مقاييس البشر العاجزة القاصرة، وما كان من سبق قدر الله عز وجل، بما أدهشهم وأذهب لُبَّهم وبلغ منهم غاية العجب.

١- فمع أن الله تعالى خلق النار وأودع فيها خاصية الإحراق، وعلى هذا قامت السنن الكونية، وجرت مقاييس البشر؛ إلا أنه قد سبق في قَدَره سبحانه أن لا تؤذي إبراهيم -عليه السلام- حين ألقاه قومه في جحيمها المستعر، بل قَدَّر سبحانه أن تكون عليه بردا وسلاما!!!؛ خرقا لعادات البشر ونواميس الكون. فكتب الله تعالى له بذلك العزة والنصر، وحكم على قومه بالخيبة والخسران، من حيث أرادوا القضاء عليه، وجعل تدبيرهم عليهم.

٢- ومع أن سنة الله تعالى قد جرت بالهلاك المحقق على من أُلقِي في عُرْض البحر مجردا من أسباب النجاة؛ فضلا عمن أُلقي فيه فالتقمه الحوت!!، وعلى هذا قامت مقاييس البشر؛ إلا أن قَدَر الله تعالى قد سَبَق بإنجاء يونس -عليه السلام- حين ألقي فيه فالتقمه الحوت!!! وسبحان من لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو السميع العليم!!.

٣- ومع أن مقاييس البشر القائمة على الأسباب التي أجراها الله تعالى في هذا الكون حاكمة بأنه لا يمكن للمرأة العقيم العجوز التي يئست من المحيض أن تحمل وأن تلد وأن يعيش ولدها، إلا أنه قد سبق في قَدَرِ الله تعالى حدوث ذلك، كما حدث في قصتي إنجاب إسحاق، وإنجاب يحيى، عليهما السلام.

لقد رفع الله سبحانه الأسباب، وقدَّر أمرا خارجا عن العادة، فحملت العقيم العجوز من الشيخ الهرم، وقرَّ الله عينهما بابن جعله قرة العين وفلذة الفؤاد، على غير ما تعارف عليه البشر واستقر في عقولهم!!.

سادسا: من خلال المشاهد القرآنية التي تضمنها البحث في مقاييس البشر وسَبْقِ القدر، ظهر كثير من اللطائف والهدايات، ومن ذلك:

١- وجوب الثقة في قدرة الله تعالى على كل شيء، مهما فُقِدَت الأسباب وفات أوانها.

٢- أن مقاييس البشر عاجزة وقاصرة دائما عن إدراك ما أخفاه الله في قَدَره، مهما بلغ العقل رسوخا، ومهما بلغ اليقين ثباتا؛ لأجل هذا وجب التسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

٣- أن الدعاء سلاح المؤمن الذي لا يجوز له تركه أبدا؛ فلا يجوز للمؤمن أن ينقطع رجاؤه وحُسن ظنه في الله تعالى مهما فَقَدَ الأسباب، والله تعالى لا يخيب رجاء السائلين، ولا يَردُّ استغاثة المضطرين.

٤- يجب على المؤمن أن يكون: ثابتًا على الحق، واثقًا من نصر الله تعالى وتأييده وحفظه؛ مهما عَظُم البلاء. صابرًا على الابتلاء، راضٍ بقضاء الله تعالى وقدره. موقنًا أن ما خبأه الله تعالى في قدره هو الخير كل الخير. مفوضًا أمره إلى الله تعالى. موقنًا بسَعة فضل الله تعالى، وعظيم جزائه وكرمه.

٥- أن الأعمال الصالحة أيام الرخاء تنفع أيام الشدائد والبلاء، وتكون سببا بمشيئة الله تعالى في إزالة الكروب وكشف الهموم.

٦- أن الله تعالى واسع الفضل والمنة، يعطي السائلين بغير حساب، على قدره سبحانه، لا على أقدارهم.

٧- أن الإنسان هو الإنسان، مهما كان نبيا أو رسولا، ومهما بلغ من اليقين، فإنه لا ينفك عن بشريته التي ترتبط بسنن الله تعالى في هذا الكون، فإذا خرج الأمر عن تلك السنن الكونية بلغ منه غاية العجب، وما ذاك إلا لأن مقاييس البشر عاجزة قاصرة.

٨- أن التعجب العادي من طلاقة قدرة الله تعالى على خرق العادات، وإيجاد الأمور على غير ما تَعَوَّد البشر عليه، لا يُعَد شكًّا أو إنكارًا، وإنما هو جارٍ على سنة الله تعالى أيضا، ومؤيَّدٌ بما وقع من أنبياء الله تعالى، صفوته من خلقه.

وأما التوصيات:

فإني أوصي المتخصصين في الدراسات القرآنية بمواصلة البحث في هذا الموضوع، بجمع كل شواهده القرآنية، ودراستها في بحوث أو رسائل علمية، وبيان ما اشتملت عليه من اللطائف والهدايات.

والله تعالى أسأل أن ينفعني بهذا العمل، وأن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، والحمد لله في الأولى والآخرة. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.

د/ ربيع يوسف شحاته الجهمي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن

في جامعة الأزهر، المشارك في جامعة تبوك

*****

ثبت المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم .... **تبارك الذي نزله**

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن:

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبي السعود، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت – بدون تاريخ.
٢) إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ
٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.
٤) البحر المحيط في التفسير: للإمام أبي حيان، صدقي جميل، ط/ دار الفكر – بيروت – الأولى ١٤٢٠هـ.
٥) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، دار النشر: دار الفضيلة.
٦) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين الفيروز أبادي، تحقيق: محمد علي النجار. ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الثالثة ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٧) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، المحقق : علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٨) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم، ت: د ضاحي عبد الباقي محمد، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت، الأولى – ١٤٢٣هـ.

٩) التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٠) التسهيل لعلوم التنزيل: لأبي القاسم ابن جزيء الكلبي تحقيق: د/ عبد الله الخالدي، ط/ شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ.

١١) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي تحقيق الشيخ علي معوض، وعادل عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة – ١٤١٩هـ.

١٣) تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٤) تفسير القرآن للإمام السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

١٥) التفسير الكبير: للإمام الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٦) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) للإمام الماتريدي المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان

١٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

١٨) الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبى، تحقيق: أحمد البردوني، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.

١٩) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور عبد العظيم المطعني، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢٠) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط، ط/ دار القلم، دمشق.

٢١) درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكاف، تحقيق د/ محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

٢٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الآلوسي البغدادي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ..

٢٤) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، ت: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٢٥) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت

٢٦) غريب القرآن لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٢٧) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام الشوكاني، ط/ دار ابن كثير، بيروت، الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة – ١٤٠٧هـ.
٢٩) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين الكناني الحموي الشافعي، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء ـ المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
٣٠) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
٣١) لباب التأويل في معاني التنزيل: للإمام الخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى – ١٤١٥هـ.
٣٢) لطائف الإشارات للإمام القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.
٣٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة، ت: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١هـ.
٣٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للإمام ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط/ دار الكتب العلمية، لبنان، الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.
٣٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي، ت: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٣٧) معالم التنزيل للبغوي تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى ، ١٤٢٠هـ.
٣٨) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/ جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٩هـ.
٣٩) معاني القرآن وإعرابه: للإمام أبي إسحاق الزجاج تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.معترك الأقران
٤٠) معاني القرآن: للإمام أبي زكريا الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الأولى.
٤١) المفردات في غريب القرآن: للإمام الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.
٤٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٤٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٤٤) النكت والعيون: للإمام أبي الحسن الماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٤٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن الواحدي ت: عادل عبد الموجود، وآخرين، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٤٦) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن لغلام ثعلب، المحقق: حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية/ المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

ثانيا: كتب الحديث الشريف وشروحه:

٤٧) سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٤٨) السنن الكبرى للإمام النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

٤٩) شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، للإمام النووي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثانية، ١٣٩٢هـ.

٥٠) صحيح البخاري: للإمام البخاري، تحقيق: د/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥١) صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

٥٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

٥٣) المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٥٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

٥٥) مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار) لأبي بكر ابن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٦) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، للإمام بالخطابي، الناشر: المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

ثالثا: البلاغة ومعاجم اللغة:

٥٧) أساس البلاغة للإمام الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٥٨) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.

٥٩) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للإمام الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، الرابعة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٦٠) القاموس المحيط: للفيروزآبادي تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط/ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٦١) لسان العرب، للإمام محمد بن بن منظور الأفريقي المصري، ط/ دار صادر، بيروت، ط/١، بدون تاريخ.

٦٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد علي الفيومي، ط: المكتبة العلمية، بيروت.

٦٤) مختار الصحاح: لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط/ المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٦٥) من بلاغة القرآن للأستاذ/ أحمد البيلي البدوي الناشر: الجفان والجابي – قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ – ١٩٨٧

رابعا: **كتب العقيدة**:

٦٦) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام المقدسي، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٦٧) العقيدة الطحاوية بشرح لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي)، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٦٨) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين السفاريني، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق، الطبعة: الثانية – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م.

٦٩) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، للإمام الغزالي المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي – قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

*****